

أول رواية صدرت بالحجاز :

التواضع

## رواية ادبية علمية احتناعه

بقلم

عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن عبد المحسن بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان

الموظف بديوان اماره المدينة المنورة

« ملحوظة هامة :

« قد فسرنا بعض الألفاظ اللغوية المغلقة »

« وحللنا بعض التراكيب المحازية بأصفل »

«صفحات الرواية: ايضاحاً وتنويراً لافكار»

« الناشئين والمبتدئين من القراء الكرام »

« المؤلف »

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٣٤٩ هـ مطبعة الترقى بالقاهرة في دمشق ١٩٣٠ م

# الاصدا

الى الناشئة المتعلمة ،

والى كل قارئ غيور :

اقدم هذه الرواية :

تبصرة وذكرى

المدينة المنورة في غرة ربيع الاول سنة ١٣٤٩ هـ

عبد القدوس الانصاري

## مقدمة المؤلف

### بسم الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف المرسلين وآله وصحبه اجمعين ومقتني هديهم القويم الى يوم الدين .

( وبعد ) فغير خاف ما جلبته المدنية الغربية الحديثة على الشرق عامة ، وعلى العالم العربي الاسلامي خاصة من آفات فتاكة ، ودوا دهباء . . . مما كاد يودي ببنائنا الاجتماعي من اسسه ، ويقضي على كياننا الاخلاقي من رأسه .

وبديهي أن هذا الفتح الاوربي انما اعتمد في توسعه وانتشاره على سلاحين : الدعاية القلبية ، والآلات الجهنمية .

ومعلوم ما يمتاز به الأول من تأثير على الضمائر والشواعر . لذلك نظم قواد حركة استعمار الشرق حملته تنظيمًا فاعًا اذجهزوها بما لديهم من انفذ الوسائل وافعل الأساليب .

كان من اهم هذه وامكنها وادخلها الى قرارات النفوس - تخيير تلك الروايات التي أنبست أكرية جذابة من الاغراء الشائن بالفظائع والانسلاخ من قويم الآداب ، وشريف الاخلاق .

## ( ب )

لافت هذه الدعاية - بما زُوِّدَتْ به - رواجاً عظيماً في سائر  
انحاء هذا الشرق وبالحصوص في العالم الاسلامي العربي ، فتغلغل  
الى قرارات نفوس الجماء المغفير من ناشئة ومتعلي فتبانه وفتبانه  
معاً - الذين اصبحوا فيما بعد ضحايا مطالعاتهم وذباح مروياتهم ...  
وكان حقاً على الشرق عامة ، وعلى هذا العالم العربي خاصة ،  
بعد ان نهضا نهضتهما الحديثة : ان ينظما حملة دفاعية تقاوم تيار  
هذا السيل الجارف ، وتوقفه عند حده ... وذلك بمقابلة الابرة  
بسان اختها !

ولكن مع كل اسف فقد ظل رجال التربية والاخلاق منا  
مكمومي الافواه الى امدٍ بعيد حتى يُفاقم الخطب واوشك الحرق ان  
يتسع على الراقع ...

هناك استيقظ نفر منهم لهذا الشر المستعير فاعملوا اقلامهم  
لاخذ لهيبه ولكن من غير طريقه الذي منه انساب وانحدر ...  
ذلك - والحق يقال - ما حملني الى تحرير مقال في هذا  
الموضوع الخطير : موضوع الهداية والاصلاح ( نشرته مجلة المرشد  
العربي الفراء باللاذقية في جزئها الرابع من السنة الاولى ) عرضت  
فيه اقتراحي في هذا الشأن وذلك بما يلي :

« ثانياً : مقاومة تيار الفساد من نفس طريقه . ومعنى هذا اتخاذ

( ج )

نفس الاساليب التي يُروج بها المفسدون صحفهم ودعايتهم في العالم  
( فالعبرة بالغايات ) . وذلك بتضمين التثقيف الاسلامي للناسج العصرية  
الاجذابة ، ووضعها في قوالب تلائم الفكر العام : كالتحرير في بعض  
الاحيان على الاسلوب الروائي او الفكاهي وغير هذا مما يزيد في رواج  
صحفنا الاسلامية : اذ بة دار رواجها يكون نجاحها . »

\*\*\*

تلك وجهة نظري في كيفية صد تيار حملة الافساد الاخلاقية المتفجرة  
من براكين حضارة ( الغرب ) الحاضرة !  
وهذه الرواية : ( التوأمان ) انما وضعتها عملاً بهذه الفكرة الشريفة !  
وهي وان تكن غير مسبوكة تماماً على اصول ( الفن الروائي العصري )  
قد يجد القاري فيها صورة صحيحة عن اضرار المعاهد الاجنبية المؤسسة  
في الشرق على مستقبل الشرق نفسه ؛ وذلك بما تلقنه لناشئته : من  
تعاليم التغرب والتذبذب المشين . كما ان بها « اي الرواية » صورة  
حقيقية لما قد يجني من الفوائد الجلى والتثقيف القويم في ظلال هذه  
المدارس الوطنية بالرغم مما يحتاط بها من عوامل الضعف والفشل داخلاً  
في ذلك الدعاية الى الاكثار من تشييدها .  
ذلك كل غرض الرواية . وليس من مقاصدها البتة الاغراء بجفاء  
العلوم ، والفنون التي قد ضربت فيها ( اوروبا ) أخيراً بسهم وافر .

لا . لا . لا يتسرّبَنَ ذلك الى ذهن غيبي لا يتدبر . . . . فهذه قد  
كانت مِنّا ولنا فيجب اذا ان نسعى سعياً حثيثاً متواصلاً لاقتناصها  
منهم وردّها الى مهدّها الاول . ولكن بذياك الاسلوب القويم المدمج  
بدينيتنا السائر على مقتضى تقاليدنا نحن ؛ كما تؤب اليها عظمتنا  
التاريخية في ثوبها الفضفاض . وقد يعيد التاريخ نفسه . وما نهضة  
امة ( اليابان ) واسلوبها الوطني الشائق عنا ببعيد !

هذا والرجاء من السادة القراء ان يَمْنُوا بِفَضْلِ الطرف عما قد  
يصادفونه في هذه الرواية من هفوات او غلطات . فانما هي عمل  
مبتدئ عاجز . وانما الاعمال بالنيّات . وبالله المستعان

المدينة المنورة :  
عبد القدر وسى الانصاري

## ١ - التوأمان

في ذلك القصر الفخم الرائع القائم في قلب ذياك الحيّ الشرقيّ الجميل من هاتيك المدينة العربية الزاهرة التي طالما خففت في فضاءها اعلام الخلافة الاسلامية في ازهى عصورها الغابرة : كانت تظن أسرة عربية مسلمة عريقة في المجد معروفة بوفرة الثراء .

وكان رئيس هذه الاسرة النبيلة شيخٌ وقور جاوز العقد الخامس من عمره الذهبي الى حلقة السادس يدعى : « سليمان » .

وكان سليم هذا كاسمه ، سليمان في طوبته ، سلامته في دياره وماضي حياته ، فطالما تراءت له الأيام في غلائل السعادة والهناء ؛ غير ان في قلبه لوعة لا ينطفى أوارها الا بتنسّم ريحانة الأبناء ؛ رجاء ان يكونوا له أبهج سلوى ، وأحسن ذكرى في هذه الحياة الدنيا ؛ فكث طويلاً لا يألو جهداً في الابتغال الى بارئ النسم : ان يتخفه بأمنية أمانية ، حتى اذا وافي الوقت المقدور حبتة العناية الالهية بتوأمين اثنين . فأسمى احدهما : « رشيداً » والآخر « فريداً » .

ولشدّ ما سرّ بنجوم<sup>(١)</sup> هاتين الزهرتين الناضرتين في روضة الوجود الزاهر لذلك لا غرو<sup>(٢)</sup> أن يكونا موضع حفاوته ، وموطن رعايته .

(١) نجم الشيء بنجم نجومًا : ظهر وطلع : المنجد . ص ٥٩٢ طبع عام ١٩١٣ م .

(٢) اي لا عجب .

فعاهد الله في اخلاص لأن ابقاهما له فلن 'يرزقهما' <sup>(١)</sup> من امرهما عسراً حتى يبلغا اشدّهما ويستقلا بشأنهما .

## ٢ - التوأمان يجتازان دور الطفولة

واجتاز <sup>(٢)</sup> التوأمان دور الرضاع فالفطام ، وترعرعاً ، وهما صحبنا الجسم ، موفوراً النشاط . بسبب ما يحاطان به من ضروب العناية والحياطة . واذ ذاك عن <sup>(٣)</sup> لوالدهما ان يدخلها بادئ بدء مكتباً تحضيراً يدرسان فيه مبادئ القراءة والكتابة العربية .

ففي ذات يوم جمعها وابدى لهما رغبته هاته ؛ واعلمها في لطف وحنوّ <sup>(٤)</sup> انه قد عقد النية على ابرامها ( اذا هما قابلاها بارتياح ) شارحاً لهما مزايا العلم ، ومنوها لهما بان التعلم في الصغر كالنقش على الحجر . وفوق هذا فقد وعدهما بان يمنحهما ازاء قبولهما بأنفس التحف .

فكان منهما ان ارتاحا لرغبة والدهما السنية مقتبطين بها ايما اغتباط وبالفعل فقد اخذيد بهما في صباح اليوم التالي الى المكتب التحضيري ، وسلمها ليد المدير . وبالع في وصايتة والحاضرين من المعلمين - بها خيراً . وذلك بتعهدهما في التعليم خصيصاً بنصح واخلاص ، وضمن دائرة العطف والحسنى .

(١) اي فلن يكلفهما (٢) بمعنى : قطع . (٣) اي ظهر . (٤) اي تعطف .



ولمكانة الشيخ في النفوس : قبول رجائه من الجميع بالقبول .  
فانصرف الى مقمره ، ولسانه يلجج بالثناء على هؤلاء ، وفؤاده  
مملوء بالجذل والرجاء .

### ٣ - التوأمان في المكتب التحضيري

ودخل التوأمان قاعة الصف الاول من المكتب التحضيري فهالما  
لأول مرة ذلك الدوي المنبعث من ارجاء القاعة في استمرار وانتظام .  
فلا بدع والحالة هذه : ان تكون منها دهشة القادم الساذج ، بلة  
انكماش الغريب المرتاع .

فلاحظهما المدير وهما على تلك الحال ، فاقترب منهما نجيا ، ولاطفهما  
قائلا لهما بكل بشاشة ولين : -

« ايها التليذان الجديدان : لا تظهرا اندهاشا ، ولا تبظنا انكاشا  
فوالدكما الوقور لم يلق بكما الى مسبعة ، ولم يرمكما في مضبعة . وانما  
أودعكما حبا برفيكما وسعادتكما الى أبر أسرة ، وخير منزل لحاضركما  
ومستقبلكما .

لا تراعا ! فما هذا المكتب الاداري الثانية تتمعنان فيها بما لذ وطاب  
من مبادئ الفنون وزهرات العلوم الفواحة .  
لا أندهاشا ! بل امتلا اطمننا وابتهجا أن من البارئ عليكم

فبؤاً كما هذه الدار التي منها مبدأ رقبكما ومنشأ تقدمكما ان شاء الله»  
وهنا آنس منها استثناساً .. اذ طفحت على جبينيهما دلائل البشر  
والانشراف فدعا اليه بعض خيرة المعلمين واوعز اليه بتعليمهما وارشادهما  
بكل نصيح وفقى رغبة والدهما الوقور .

\*\*\*

وابتدا التوأمين في تعلم المجيء العربي منذ ذلك اليوم . حتى إذا  
أذن بانقضاء ساعات الدوام : انقلبا الى والدهما قريري العين ، فنوها له  
في غبطة وسرور عن النصيحة التي اسداها المدير اليهما .  
فكان من الشيخ ان ضم اليه هذا ، وقبل جبين الآخر .. استبشاراً  
بأبدا عليهما من علامات الرغبة والنشاط . ولم يدع تحفة ظريفة ولا  
هدية نفيسة لديه الا وقدها اليهما وفاءً بتطوع وعده . والوعد على  
الكريم دين .

حتى اذا ارخى الليل سدوله <sup>(١)</sup> ناداهما في تلطف . ورجا منهما ان  
يعيدا درسهما الاول على مسمع منه . فالفي منهما أمارات <sup>(٢)</sup> الجد والذكاء .  
فتهلل جبينه فرحاً . واذا ذلك بسط لهما بدوره نصائح في شئون الدراسة  
وكان مما اوصاهما به المحافظة على توفير عموم الاساتذة . وأملاهما هذين  
البيتين المشهورين :

(١) عبارة عن اظلام الليل . (٢) الامارات : جمع امارة : وهي العلامة .

ان المعلم والطبيب كلاهما : لا ينصحان اذا هما لم يكرما ؟  
 فاصبر لداثك ان جفوت طيبه واصبر لجهلك ان جفوت معلما ؟  
 حفظاها في سرعة البرق ووضح لما مفزيتها . فسابلا نصيحة  
 والدهما الروم <sup>(١)</sup> بالسمع والطاعة .

وهكذا كانت خطة التلميذين : ( رشيد ) و ( فريد ) بعدئذ : —  
 « يوقظها والدهما عند انبلاج الفجر فيتوضآن معه ، ثم يكر  
 « بها الى المسجد الجامع المأثور حيث يؤدون صلاة الصبح مع  
 « الجماعة في وسط ذلك السكون المملوء روعة وجلالاً ، وعظمة وجلالاً .  
 « ثم ينثني <sup>(٢)</sup> بها الى المنزل وقد هيئ لها طعام الفطور فيتناولانه هنيئاً ،  
 « ويشربان بأثره القهوة العربية مريثاً . وفي الحال ينهضان فيرتديان  
 « ملابسهما المدرسية النظيفة الجميلة ويغدوان الى المدرسة فيصلانها  
 « قبيل سائر الطلاب . ويمضيان سحابة دوامها في الحفظ والتكرار بكل  
 « جد واعتناء . ثم ينقلبان الى الأهل في نشاط وسرور . . ثم ما تأذن  
 « رايات الليل السوداء بالقضاء على جحافل النهار البيضاء الا وقد اجتمع  
 « الصنّوان <sup>(٣)</sup> كروة اخرى يتذاكران بضع ساعات على ضوء ذلك الصباح  
 « ( الكهر بائي ) المشرق — درسيهما بالامس . ثم ينامان ملء اجفانهما  
 « في هناء واطمئنان .

(١) اي العطوف . (٢) ينثني : يعود . (٣) الصنّوان : الاخوان الشقيقان .

« ويتبدآن في الصباح التالي بنفس مشروعهما صباح اليوم الماضي »  
لهذا لا غرابة ان يكونا موضع عناية المعلمين الخاصة . لما أودع  
في فطر هؤلاء - من الانكباب على ثقيف من يتوسمون فيه من  
ابنائهم الروحيين - جداً ودأباً على التحصيل .  
ثم لهذا نفسه لا عجب ايضاً ان يكونا مغبوطين من قبل من في  
مكتبهما من الزملاء :

على ذلك المبدأ الحميد درجا ، وعلى هذا النظام الميمون سارا . فما  
كادت سنوات الدراسة التحضيرية تنتهي ، الا وقد برز التوأمان  
المجدان : كوكبين لمارعين في سماء النجاح ، ودرتين فرديتين في جيد  
التقدم والفلاح .

\*\*\*

## ٤ - بعد الفراغ من التحضير

ها هو الأب « الشيخ سليم » مشالج الصدر ، شديد الفرح ، عظيم  
الاستبشار بتفوق ابنه في ميدان التعلم الاولي .  
وها هما التوأمان الفائزان بدورهما جذلان ، ضاحكا السن ، متهللا  
الجبين - لفوزهما على بقية الاقران .  
ثم هاجي ردهة<sup>(١)</sup> القصر الواسعة وقد اكتظت بعشرات الوفود

(١) الردهة : اوسع محل في البيت .

المهنيين من مبرة المدينة واعيانها - من اصدقاء ومعارف الشيخ سليم ،  
مقدمين لحضرته باقات <sup>(١)</sup> التهاني الصميّة بنجاح فجلية وحوزهما قصب  
السبق في مضمار التعليم التحضيري الذي هو اساس الرقي ومهد التقدم .  
وها هو الشيخ سليم يستقبل زائريه الكرام - كلاً بما يليق به من  
اللفظ والبشاشة والاكرام مقابلاً تهانئهم بتقديم جزيل الشكرات  
وفائق الامتنان .

ثم هاهم الزائرون المهنيون يباركون الطالبين الفائزين ، ويشجعونها  
على المثابرة على الجد الحثيث المتواصل الى ان يرتقي قمة المجد العليا .  
ثم هاهم قد بدأوا يتباحثون فيما بينهم في شتى المواضيع . وها هو  
البحث قد جرّهم بقاعدة - « الحديث ذو شجون » الى الجوض في  
المدارس ومناهج التعليم .

وها هم قد انقسموا في هذا الموضوع الى حزبين : حزب يشيد  
بالمدارس الاجنبية ، وينوه بما لها من آثار وافضل في ثقافة الناشئة  
العصرية . مُتَدِّدًا بالمدارس الوطنية أَيْمًا تنديد . . حائثاً على انتجاع  
مناهل الاولى المتروكة بما يفيد الفكر أَيْمًا افادة . اما الوطنية .  
اما الديانة الاسلامية : فمعلوم ان هذه المدارس بالرغم عن كونها اجنبية  
المنشأ فانها بمزمل عن التأثير فيها بما يسوء . حيث لا تزال تعلن

دائماً ان مبدأها الوحيد هو التثقيف الفكري البَحْتُ بأسلوب قويم لا يكاد يصطدم بالديانات والمبادئ مطلقاً .

ومن راح يناقض هذه النظرية ، ويهدمها من اساسها ، حاملاً على تلك المدارس الاستعمارية حملة شعواء ، مبرهنًا على انها لم تؤسس من اول الأمر ولن تؤسس الى آخره ، الا لتخريب الشرق وتسويس ادمغة ابنائه ، اتماماً للقضاء عليه بدعوى اتقاذه وثقيفه . فالغربي لا يخدم الا مصلحته ، منوهاً عما انكشف حديثاً وقديماً من اغراضها الخبيثة في هذا السبيل ، وموضحاً ان الغربيين وهم الحريصون على الانانية والاستثمار والاستعمار ليسوا من الانسانية او البله بحيث يهجعرون ديارهم ويحرمونها من ثمرات علومهم بقصد غرسها في الشرق الذي اغرموا باضطهاده واستباحة محارمه ، واستنزاف خيراتهم ومحق دياناته وغمط مدنياته ، ذائداً عن كرامة المدارس الوطنية التي شيدت بالشرق لنشله من هوة الخمول وتأمينه من انياب الدخيل ، حاثاً على مناصرتها وتشجيعها حتى تكون وفق المرغوب منها .

واخيراً احتدم الجدل بين اثنين من هؤلاء الزوار . فراح كل منهما يوقع بنظرية الآخر ، مؤيداً ما ذهب اليه حزبه بكل ما يملك من برهان وبكل ما أوتي من بيان .

كان كل هذا بمحضر من كلا التلميذين : رشيد وفريد ، وبمشهد

من نفس والدهما الذي لم يَبْسُ "١" بينت شفة 'يفهم' بها مشايسته  
لنظرية ضد أخرى ...

وبالطبع فمثل هذه المباحثة قد تبقى اثرًا قويًا في عقليات الناشئة  
المتعلمة ، وبالفعل فقد تكونت إثر ذلك لكل من التوأمين نزعة لم  
تكن بالنزعة التي نضم عليها جوانح اخيه نحو المدارس والتعليم .

\*\*\*

رشيد اقتنع تمامًا بنجاح المدارس الوطنية وسلامة نتائجها وحسن  
عواقبها ، كما ثبت في ذهنه اضرار المدارس الاجنبية ، واضطراب نتائجها  
لنش مؤسسها وخداع القائمين بشؤونها ...  
لذلك اظلمت نفسه للانتظام في سلك الأولي اذا ساعد المقدور  
ووافق الوالد :

اما فريد فعلى العكس من ذلك . إنه قد شغف بما يسمى مدارس  
اجنبية ، اقتناعًا فيما يظهر بثبوت نظرية الفريق الذي قد كان اطنب  
في تقديسها وتعالى في تفخيمها ، ولانه في الواقع كان كثيرًا ما يمر في  
منصرفه الى الدار اثناء انتظامه بالمكتب التحضيري - على احداها ،  
فيظل من احدى نوافذها السفلية الى داخلها فيشاهد في عرصتها الواسعة  
العباءة شائقة ولهوا مغربًا ...

\*\*\*

هكذا تكونت نزعتا رشيد وفريد . . وإذا فمابقى لما الا أن  
يَتَلَقَّيَا الكلمة الاولى والآخرة من سيدهما الوالد :  
وهاهما وقد احتفأ به من جانبيه . وقيل ان يُعرضا عليه فكرتِهما  
بدهما هو قائلاً من تلقاء نفسه :-

لقد وَعَيْتُمَا كلاكما ما دار من المناظرات في مناهج الثقافة بين زائرنا  
هنا بالامس . وعملا بمبدئي معكما وحبا بارضاء خاطر يكما وعدم  
تكليفكما ها انا أُنقي الحبل لكما على الغارب . فليعرب لي كل منكما  
عن نوع المدارس الذي يود الالتحاق به فاناله عند ما اراد .

\*\*\*

لقد اسلفنا لك ان الشيخ « سليمان » كان قد عاهد الله بتحرير ابنه  
من قيود الارهاق ، وبالاخرى من قيود التربية المحتومة ، والارشاد  
الالزامي . ومعاملته هاته معها برهنت لنا على انه جد وفي بهده ،  
وفاء دل على ما في طويته من بساطة وسلامة . هو في ساعة احتدام  
المناظرات لم ينبس <sup>(١)</sup> بكلمة يوضح بها وجهة نظره . ثم لا يكتفي بذلك  
حتى يعلن التوأمين بانها حران طليقان فيما يهويان ؟

ولكن لا غرابة : فهذا شأن فئة ليست بالنذر اليسير من اولياء امر  
الطلاب يُرْخُون لم العنان في منهج التشقيف الذي يهوون ثم لا يعاؤون

(١) اي لم ينطق .



باعوجاج خطتهم ولا بسوء سلوكهم الا اذا بلغهم مثلاً رسوبهم في اختبار  
جغرافية قطعة حقيرة من قطع اوروبا او امريكا . فاذا حازوا ( اليسانس )  
او ( الدكتوراه ) مثلاً آبوا الى اوطانهم ناعين عليها تقاليداً وعقائدها ،  
ناقمين على انفس اوليائهم الذين اوصلوهم الى هذه الذروة - جودهم  
على الاساطير التي مضى وقتها ... وهناك نلشب معركة منزلية هائلة  
كثيراً ما تلتب لها القلوب حسرة وأسفاً ، وتذوب لها المصائر  
حزناً وأسى ...

\*\*\*

فلنا ان الشيخ « سليماً » تفضل ... فنجح ابنه ( حرية المصير  
المدرسي ) رغبة في رضاها .  
فلما « رشيد » فقد اعرب عن رغبته في اللحاق بمدرسة ابتدائية  
وطنية هناك لما تاريجها المجيد في تخريج متفوقين بارعين .  
فامضى الوالد رغبته .  
والتفت الى شقيقه « فريد » كأنما يستمليه ارادته . فابدى له  
تعلقه بمدرسة ابتدائية اجنبية ، بالمدينة ( هي التي كثيراً ما تستوقفه  
مناظرها في طريقه ) إذ مديرها وثلاثا معلمها من قديري الاجانب ...  
المخلصين ... والثالث الباقي من احرار نوابغ الوطنيين ...  
فانفذ له الشيخ طلبته ايضاً .



## ٥ - التوأمان في الدراسة الابتدائية

وما يوشك زمن العطلة الصيفية ينقضي حتى نلمح الشيخ «سليماً» ممسكاً بيدي نجله مسرعاً بهما نحو مديري تينك المدرستين الابتدائيتين اللتين عرضا عليه رغبتهما في دخولهما فوافق .

هذا «رشيد» بين يدي المدير الوطني الغيور «نبه أفندي» يوعز الى المكاتب بقيده في ضمن طلاب المدرسة وذلك بعد اجراء الفحص اللازم .. مخبراً والده في توقيه بأن مبتدأ الدراسة يوم الاثنين المقبل اما النفقات الدراسية فهي لا تتجاوز ثلاثين ليرة انكليزية لكل عام . اي ثلاثة ليرات لكل شهر دراسي .

ثم ها هو «فريد» بين يدي المدير الاجني مسبو «برنار» يأمر بقيده في عداد طلاب مدرسته ، ويشعره مباشرة بأن فتح المدرسة يكون يوم السبت القادم .

اما رسم المدرسة السنوي فهو خمسون ليرة لبس غير !

\*\*\*

وبزغت شمس صباح يوم السبت الموعود وراء غمام قائم لم تشأ الرياح الا ان تعث به فتبدد جحفله قليلاً عن جبهة «اخت

يوشع»<sup>(١)</sup> لتطل بشعاعها الملتهب من خلف سجوفه الى نافذة تلك الغرفة العليا التي لا يزال بها «فريد» يغط في المنام... فما كان منه بعد ان أثرت بوجهه أشعة تلك (الطارقة) الحمراء الا أن هب من فراشه ففصل وجهه وبديه بالصابون. ثم دعا الخادم ليحضّر له طعام الفطور. واذ تناول به بسرعة وثب الى بذلته المعلقة على «مِشجَبٍ»<sup>(٢)</sup> بالغرفة، فارتداها في خفة، وعمل لنفسه (التواليت) بأكمله. ثم توجه الى المدرسة

وهناك ألقى جماهير الطلاب قد تناثلوا<sup>(٣)</sup> اليها مصطفين بساحتها صفوفاً صفوفاً. والمدير واقف في وسطهم. وقد شرع يلقى عليهم التعليقات الاساسية للمدرسة. وطبعاً فقد كان في مقدمتها وجوب تحرّز الطالب اثناء وجوده بالمدرسة من ربة دياته... ليتقيد بالواجبات المختصرة القدسية... التي يلقنها اياه «الأب يوحنا»... مع عدم التماور بقدر الامكان الا باللغة الاجنبية المقررة في البرنامج... ليتسنى<sup>(٤)</sup> للتلميذ الوطني - والحالة هذه - اتقانها واجادتها والنطق بها كما لو كان واحداً من راضعي لبنائها في أوجز مدة ممكنة...

(١) كناية عن الشمس. (٢) آلة لتعليق الثياب معروفة. (٣) اي انصبوا اليها. (٤) اي ليتسنى.

وانتهى المدير من خطابه . فوزعت التلاميذ على الصفوف بحسب  
وجباتهم وعينوا لفريد مقعداً بالصف الأول .  
وصرت بضع دقائق ، واذا بالمعلم الاستاذ « أسيف » داخل عليهم  
فوقفوا مؤدبين التحية الرسمية لحضرة وشرع يلقي درساً عليهم كان  
في جغرافية ( اوروبا ) ...

ومن غير مناسبة واضحة انتقل بهم الى ذم الشرق والحط في  
مدنياته فصار يكيل له الطعن جزافاً<sup>(١)</sup> ... ولم يكد ينتهي من هذه  
المهزلة حتى دق الجرس ايذاناً بانتهاء حصته . فقام وتولى من الباب  
الذي منه أتى .

خرج طلاب الصف للفسحة .. واذا انتهت مدتها رجعوا ..  
فتلقوا الدروس وهكذا حتى اطلق المدفع . فتجهزوا للعودة الى اهلهم .  
وفي الجملة صاحبنا « فريد » .

واذ دخل على ابيه بادره هذا بالاستيضاح عن حالة المدرسة ؟ -  
وعن وجهة فكرته فجوها :  
فاجابه قائلاً : -

نعم ياسيدي الوالد اني جد سعيد بانتظامي في عقد هذه المدرسة  
الفريدة . انهم يامولاي : اراحونا قبل كل شيء من عناء القيود

(١) اي من غير دلائل ولا تبصر .

الدينية الكثيرة حفظاً لمدة الدراسة من ان تضع حبة فيما لا اتصال لها به . ثم فوق هذا أزمونا بان نتمرن على التخاطب باللغة الاجنبية المقررة بمدرستنا لنتمكن من استيعابها في اقرب مدة ٠٠ حبا بسرعة تعلمنا ونفاجأنا . ثم قال : لذلك كله يتنى من صميم فؤاده لو يسعد الحظ أخاه « رشيداً » فيصمم على الانضمام الى هذه المدرسة الراقية ليتهصر<sup>(١)</sup> معاً ماله وطاب من ثمار المعازف باجود اسلوب واقوم سبيل .

لم يصل « فريد » في اطرائه الى هنا حتى تفجر بركان غيظ اخيه « رشيد » فعارضه بكل تأثر واحتدام قائلاً :-  
لا . لا . بل انا الذي يحق لي ان اتنى ان يتفذك الله مع هذه الهوة السحيقة التي ارميت في احضانها الويلة ظاناً بصنيعك هذا انك تحسن صنعا ، بينما انت جد مُسيء الى نفسك ، ثم الى امتك باساءتك الى نفسك !

قاتل الله مدرستك الاستعمارية الوحقة التي تُنفرك عن تعاليم دينك الحنيف ، باسلوب ماكر استهواك ياساذج الفكر وياقاصر النظر : لتوقعك في كنائس الكنائس ، وتلجم لسانك عن الانطلاق في رياض اقلتك الفبيحاء ؛ لتوغلك في مسابغ اللاتينية وأذناها المشثومة .

هذا وان يوم الاثنين المقابل هو اليوم الذي تفشح فيه مدرستنا الوطنية الراقية بحق إن شاء الله فان كنت ملحوظاً بعين السعادة فسترفض العودة الى ذلك الفخ الأجنبي . . . . . وأطمئن لمراقفتي الى مديرنا الوطني الغيور . ولجه لمواطنيه واخلاصه لسيدي الوالد لا اراه يتوقف في قبوئك وان جئت متأخراً .

وقدم طعام العشاء في تلك الساعة . فكان السبب في انقطاع المحاورة في هذا النهار . غير انها لما أویا الى فراش منامها لم يدعا باباً من أبواب المناظرة في موضوع المدرستين الا ولجاء - حتى آل الامر الى مناقشة حادثة دوى صداها المزجج في فضاء الغرفة الجميلة فردته سائر انحاء القصر العظيم . . . . . ثم كان صمت فجائي من كلا الاثنين . إذ إن الشبخ الوالد قد ايقظه من لذيذ منامه ذلك الصدا المتجاوب فصعد اليها مسرعاً . واذ لمها داخلًا وجمًا " خجلًا . وبعد ان عاتبها عتاباً خفيفاً واصلم ذات ينيها ظاهراً : عاد .

\*\*\*

لم ترين الغرفة التي طالما فاضت بالانس - بصدا ضحكات التوأمين اللطيفة هذه الليلة . بل ولم يتبادلا حسب المألوف تلك المداعبات الاخوية البريئة التي طالما فاحت الغرفة الظريفة بعبيرها

(١) اي أمسكا عن الكلام متأثرين .

المسكي . بل هما كلاهما وقد استقبلا على سريريها عالم المنام  
النفسيع في تأثر وقلق واضطراب .  
وبالتالي فلم يثن « فريد » عن مدرسته . فقد غدا اليها مبكراً .  
وكأنما زادته نصيحة شقيقه « رشيد » شغفا بها وتعلقاً .

\*\*\*

ووافيت ليلة الاثنين . فكان « رشيد » يشعر بسرور داخلي  
عميق . واذ مضى الليل الا افله قام وتوضأ وهبط الى الطابق  
الاطول الذي به ( مقر الوالد ) فافاقه بكل ادب واحترام . وأذنه  
بلطف - بدنو الصباح . ثم عاد صاعداً الى الغرفة فترك وسيلة  
لايقاظ أخيه « فريد » الا وعملها . واذ ذهبت كل جهوده في  
هذا السبيل ' سدّى نزل مستاءً فرافق والده الى الجامع فأديا به صلاة  
الصبح مع الجماعة ثم رجعا فتناولوا الفطور معاً .

نهض « رشيد » فارتدى ملابسه المدرسية وتأبط حقيبة كتبه  
ولثم الأمل ابيه ملتسماً منه الدماء بالتوفيق . فافرغ له ما في تاموره<sup>(١)</sup>  
من ابتهالات بنيل المنى وتحقيق الرغبات . واذ ذاك انطلق الى المدرسة  
بخامره<sup>(٢)</sup> مرور جم وأمل كبير . قالني اخوانه مصطفىين بعرضتها  
حسب الأصول .

(١) التامور : القلب . (٢) اى بخالطه .

ومسماهي الا دقائق وجيزة حتى وقف المدير الوطني التقدير «الدكتور محمود» في وسط ذلك المجمع الحاشد . وألقى عليهم خطاباً افتتاحياً بليغاً مؤثراً بلسان عربي مبين برهن على مافي قلبه من عاطفة شريفة ومبداء سام وإيمان كامل . ثم جلس .

وتلاه «السكرتير الاستاذ برهان افندي» فأملى عليهم التعليمات الاساسية لاستحقاق رعاية المدرسة وعنايتها . وكان في اولها المحافظة على فرائض الدين الاسلامي منذ نعومة الاظفار لينشأ الطالب وقد امتزج نوره الوضاء بدمه ولحمه . . . وهناك اقتران الفوز وازدواج السعادة ، مع التمرن بقدر الطاقة على التكلم باللغة العربية الفصحى في سائر الاوقات وخصوصاً في اثناء ساعات الدوام ، والتمسك بحسن الاخلاق سواء في داخل المدرسة او في خارجها . وبعد انتهائه من هذه المهمة يبادر الطلاب كل فريق الى صفه . ورشيد في الصف الاول .

ولم تمض برهة وجيزة حتى يوافيهم الاستاذ الاختصاصي في التاريخ الاسلامي «حسن افندي» فوقف الصف تحية بقدمه وابتهاجا بدأ يُلقى عليهم درساً في ( التاريخ الاسلامي ) الحميد ، مبتدئاً بمبدأ سيرة سيد الخلق ( صلعم ) الذي لقب بين عشيرته ( بالامين ) من قبل البعثة باعوام عديدة .



وظل ينثر عليهم دُرراً قيمة من هذا القليل بأسلوب متم  
 خال من التكلف والتمويه حتى حان وقت انصرافه . فانصرف .  
 والقلوب ترفرف عليه غبطة وشكراناً .  
 وتوالت الدروس تملؤها الفُسْحُ حسب النظام المتبع حتى انقضي  
 وقت الدوام فتوجه رشيد الى داره .

اقبل الى ابيه ووجهه متهلل وثقوره باسم ..  
 الاب سليم - كيف تجدك بالمدرسة يا رشيد ؟ اري علام  
 الابتهاج مرسمة على جبينك !

رشيد - أجل يا أبتِ اني مغتبط جداً بدخولي لهذه المدرسة  
 واحمد الله الذي لم يخيب املي ازاءها وكان عند رجائي به . فقد  
 الفيت من هذه المدرسة روحاً اسلامية وطنية عالية . وبكل اعجاب  
 يسرني ان اعرض لسيدي الوالد ان اول درس تلقته بين جدرانها  
 اليوم كان في تاريخ الاسلام المجيد . وايم الحق انه لدرس جد  
 مفيد . ولقد برع استاذنا الاختصاصي « حسن افندي » في تخطيط  
 خريطة الادوار الأولى لنشأة الاسلام بصورة فائقة حرّكت فينا  
 نحن الطلاب عِرْقَ العروبة الحامد وذكرتنا بالجد التام . والخلاصة  
 يا مولاي ! اني لمسرور الى النهاية بالتحاقى بهذه المدرسة . لذلك  
 آمل ان تكون لي الخطوة الثانية الى قمة التعليم العالي فالتخصص

باحسن اسلوب واقوم طريق . وما ذلك على الله بعزيز .  
 الاب سالم - اعلم يا بُنيَّ ( وَفَقَّتْ لِمَا دَاةُ الرِّشَادِ وَنُكِبَتْ عَنْ  
 مَهْمِيعِ<sup>(١)</sup> الْفَسَادِ ) : اني حين رزقتكما كنت آليت على نفسي اذذاك  
 ان لا احملكما ما تكرهان . بناء عليه منحتكما الحرية المدرسية منذ  
 قَطَعْتُمَا شَوَاطِطَ التَّعْلِيمِ التَّخْضِيرِيِّ فَانْتِ سَلَكْتُمَا هَذَا السَّبِيلَ الَّذِي يَمِيلُ  
 إِلَيْهِ قَلْبِي . فانا عليك لذلك جِدُّ رَاضٍ . بل وطالما دعوت الله  
 لك بالفلاح . اما شقيقك فريد فدخل من الباب الآخر وانا عملاً  
 بالعهد الآنف الذكّر انفذتُ له ما أراد . على اني - بسبب  
 ما بَدَر<sup>(٢)</sup> منه - على وجلٍ من امره . . . . . وارجو الباري ان يكون  
 عند حسن ظني به . وعلى كل فأنتم شقيقان توأمين : والرشد  
 العبقري منكما هو الذي سيكون خليفتي ويمحور الحسينين .

رشد - قبل كل شيء أدعو الله لك يا أبت بطول العمر  
 ونيل الرجاء وبالتالي أرجو لنفسي ولأخي فريد ان تكون كلانا  
 عند 'مناك' بنا . كما ربيتنا صغاراً وكنت لنا خير الوالدين معاملةً ،  
 واشدهم بنا رافةً ورحماً . . . . . وأني لاشكر الباري إذ من علي بتوفيق  
 لسلوك المنهج الذي يروق لك يا سيدي الوالد .

(١) المهيح : الطريق العظيم . (٢) اي ظهر .

الاب سليم - ان افتراقكما يا ابني في منهجي الثقيف هو بمثابة مسابقة معنوية بينكما ؛ وسنرى ما يكون .

ويصمت الشيخ ، فيقوم رشيد ويلثم انامله ، ثم يرقى الى غرفته فيطالع بها جملة من الدروس الماضية والآتية .

حتى اذا اقبل الليل يخرج الى ذلك البستان البديع المحيط بالقصر فيكرر به دروسه مرة ثانية على ضوء ذلك المصباح « الكهربائي » المنير . فاذا أحس بسنة من النوم تسري الى أجفانه يعود الى الغرفة فينام على سريره هادئاً مطمئناً . الى ان ينادي المؤذن بالفجر فيثب من علّا<sup>(١)</sup> فراشه . ويتوضأ على عادته وينزل فيصاحب اياه الى المسجد . ثم بعد اداء الصلاة يعودان فيتناولان طعام الغفطور معاً . ويكر هو الى المدرسة فيمضي وقت دوامها في الحفظ والمذاكرة وتلقى الدروس والتكرار .

على هذا درج منذ اول يوم حتى آخر يات السنة النهائية للدراسة وهناك تراه وقد اتخذ من السهر المتواصل مسامراً ، ومن الجد المستمر ألباً ملازماً .

قلماً يرى منفصلاً عنها ، الا في تلك الساعة : ساعة الأصيل<sup>(٢)</sup> التي اعتاد ان يتروض فيها بضواحي المدينة الجميلة وفي خائلها

(١) اي من فوق فراشه . (٢) الوقت الذي بين العصر والمغرب .

الابنة<sup>(١)</sup> مشياً على الاقدام .. ابقاء على بقية قواه الجسدية التي كاد ان يُخفي<sup>(٢)</sup> عليها ادمانه المطالعة بالصفة المذكورة، ثم استهماً لفكره الذي طالما يكده<sup>(٣)</sup> بمويصات المسائل الحسابية والجغرافية والتاريخية والهندسية الخ .. الخ ..

وما فتئ على ذلك المنوال حتى يوم اعلان الفحص الختامي . وهناك ترى « رشيداً » وقد ارتدى بالمرّة (مُسُوح) الاعتزال عن الناس . فكانه ذلك « الصوفي » المتبتل السائر في دور الفناء . حتى اذا لم يبق الا يومان اثنان لافتح ذلك المعرض العظيم : رفته على نفسه نوعاً ما ، استعداداً لنشاطه ، واستعداداً لخوض معمة الامتحان النهائي . وقامت هيماءه على ساق وقدم فخاضها « رشيد » بكل ثبات واقدام . ولم يتجمل الغبار الا وهو في طليعة الفائزين غير مُزاحم .

\*\*\*

أما « فريد » فقد قدمنا لك ما كان من انتظامه بالمدرسة الاجنبية ، واتينا لك بالمحاورات الحادة التي جرت بينه وبين شقيقه هذا « رشيد » من اجلها واسببها .

(١) اي بسلطانها الجدية . (٢) اي يقضي (٣) اي يملؤه .

واليك خطته بعد ذلك :-

انه نسي او ناسى الحرارة الوطنية والدينية معاً بعد بضعة شهور صرت على دخوله هاته المدرسة الابتدائية .

والسبب الوحيد في هذا الشذوذ المشثوم ما كان 'يحشى فكره دواماً من الطعن والايقاع بصميم ذيك كليهما باساليب مكرية تقرب الى اذهان امثاله ، من دون استئذان .

فكان دأبه انه كلما عاد من المدرسة فاجتمع بافراد أسرته 'ينوء لهم عما تلقاه بها من اشياء في هذا القيل متفاخراً بالتشديق بها .

\*\*\*

وكان كثيراً ما يفقه والده لصلاة الفجر مثلاً فيقوم وكله تأففٌ وضجر ، قائلاً في نفسه جزى الله عني تلك المدرسة خير الجزاء ، فاني لا اجدني مستريحاً من هذه التكاليف المرهقة - الا اذا كنت بين جدرانها . ولكن لأعتبر هذه الحركات التي سأودعها : (قياماً وقعوداً ، ركوعاً وسجوداً) - تكملةً للألعاب الرياضية التي كنت قمت بها امس في المدرسة ...

فيقوم ويأتي باعمال الصلاة ، تفكيكاً لتخدر أعصابه ، واجراء لدمه الذي قد اعتراه فخور بسبب ما كان فيه من النوم طول الليل ...

\*\*\*

ما برح « فريد » في مدرسته سائراً في سلوكه هذا، مشمولاً لاجله بعين الرضا من المدير الذي كثيراً ما يسوغ له ما كان يقع منه من تقصير... حتى حان وقت الفحص الختامي . فاختبر بصفة استثنائية . فكانت النتيجة المقررة ان اكتسب الدرجة الاولى في النجاح .

## ٦ - التوأمان في الدراسة الثانوية

ها هما التوأمان بعد ان قطعنا مرحلتي التعليم التحضيري ، فالابتدائي : قد استقبلا الآن المرحلة الثالثة . الا وهي مرحلة الدراسة الثانوية .

وبالطبع فانت على علم ان لكل منهما نزعة مدرسية غير ما للآخر . اما « فريد » فقد اختار الانضمام الى المدرسة الاجنبية التي يقوم بشئون ادارتها احد الاجانب المستعمرين أيضاً . وفي اليوم التالي ذهب به والده الشيخ الى مديرها المشار اليه . واذا ابدى له أن غرضه قيد ابنه هذا الحاضر معه في عداد طلاب مدرسته : التفت اليه وخاطبه في شيء من الجفاء الاوروبي قائلاً : —

بأية مدرسة ابتدائية تخرج ابنك هذا ؟ فانا لا نعتبر غير

شهادات المعاهد الغير الوطنية . . فان كان من خريجيها فنحن نقبله بعد التحقيق من ذلك والا فنحن معذورون في رفضه .

فريد في قلق واضطراب - اجل يا جناب المدير ان الداعي من خريجي المدرسة الابتدائية الامريكية ونجاحي وحسن سلوكي محققان ومسجلان لديها بموجب هذه الشهادة التي اشرف بتقديمها الى جنابكم : ( ويناوله الشهادة ) .

فيتناول المدير منه الشهادة ويتحول الى المصرة ( التلفون )  
 - آلو ! آلو !!! اعطني جناب مدير المدرسة الابتدائية الامريكية .  
 ( وتضي برهة يحضر فيها المدير المطلوب على التلفون ) فيخاطبه المدير :-  
 - بونجور يا مسيو : أصبح أن من بين خريجي مدرستكم لهذا العام فتي يدعى فريدا ؟

- اجل : ان المذكور من متخرجي مدرستنا ؛ وهو حسن السيرة للغاية ، حر الضمير مهذب الفكر . هل وافاكم لقيده لديكم ؟ فان يك ذلك فهو اهل للقبول والاحتفاء !

وبانتهاء هذه المحاوره التلفونية يعود المدير فيطالع الشهادة وغب لحظة يلتفت الى ابي الطالب متشقق الجبين عن ابتسامة خفيفة لا تخلو من الجفاء ويقول له :-

- بناء على هذه الشهادة وعلى هذه المحاورة قد قبلنا ابنك طالباً بمدرستنا على ان تهب له حريته فلا تضايقه في اي شيء !  
فنحن فيما بعد المسئولون عن امر تربيته وارشاده ما دام  
تلميذاً بين ايدينا . فان قبلت بهذا فادفع نفقاته المدرسية وهي سنوياً  
سبعون جنياً انكليزية .

( يضع الشيخ سليم هذا المبلغ امام المدير ) . وحينئذ يأمر  
بتسجيل فريد . ويعطيه يوم الحضور .

\*\*\*

واما « رشيد » فقد رغب في الانضمام لتلك المدرسة الثانوية  
الوطنية التي يدير شئونها احد اولئك الوطنيين الافذاذ الناهلين من  
العلم بسجل عظيم مع اخلاص جمّ وتفانٍ مقدس في سبيل الدين  
والوطنية وما اليها من المبادئ القومية .

وسرعان ما امرع به والده الى حضرته . وبعد اطلاعه على  
الشهادة التي يحملها رشيد من المدرسة الابتدائية الوطنية اذن بعبده  
في سلك للتلامذة .

لما انتقلت الدراسة فهي ترجع<sup>(١)</sup> الاولى بيلغ زهيد لا يكاد يذكر

(١) اي تزيد عن الاولى .



سلم الموالي اول قسط من التفتتات ، فاختبره المدير باليوم الذي يحضر فيه ابنه العجيب رشيد الى المدرسة لاجدائه في الدراسة . وفي اليوم الموعد بكر « رشيد » الى المدرسة . وطلب اجراء الترتيبات اللازمة دخلت كل فرقة الى صفها . وكان صاحبنا « رشيد » مبعثراً بالصنف الاول .

وما هي الا هنيهة حتى جاءهم الاستعاذ الاديب « حميد بك » فوقفوا لأداء التحية والاحترام . ووقف يشتم منشرح المظهر والبطون ليلقي عليهم «وما في تاريخ الأدب العربي بموجب البرنامج الموضوع . فاجاد ، وفاد . وما قلل في هذا العدد :

« قبل كل شيء انبهكم يا ابنائي الجباء الى ان ثروة لغتك العربية في كلماتها ووفيقها في النظم ، وانسجاسها <sup>(١)</sup> في نماذجها ، واقتدارها . تلجزم على التعبير عن العواطف وخطبات النفوس بجمل متعاضدة المفاطيم والاجزاء تفوق ريشة الرسام الماهر في التجميل والتصور . وكل فلك مما سماه بالادب العربي الى الدروة العليا خصوصاً في عصر نهضة الكبرياء القارة التي من ينبوعها المعين استمدت = ولا تغر = جميع الآداب الغربية قوتها ونشاطها . وما عجزكم هذا الدرس فيشعرون فيه إلا أن نشر لغتها القيم ولبنت <sup>(٢)</sup> يمكنوزها المئين بعد ان

(١) اي انظام نماذجها وحسنها (٢) اي استخراج

مضت عليه قرون يعلوه القتام<sup>(١)</sup> فتأبرؤوا على اجباء مواتها  
واجتهدوا في استعادة مركزها الاسمي فيكم تفقد الآمال ؟  
وما انفك يرمع على بحث خصب من هذا النوع حتى انتهت  
حصته فاعلنهم بالانصراف .

ثم مازال يتعاقب امثاله من كفاة المعلمين على هؤلاء الطلاب  
واحداً يتلوه آخر حتى تم الدوام . فانصرف كل طالب الى داره ،  
وبالمثل صاحبنا « رشيد » .

وانفق ان « فريداً » كان في ساعة قدوم اخيه « رشيد »  
جالساً الى الوالد بمحادثة في الاوضاع التعليمية وما الى ذلك . فلم  
يستقر برشيد المجلس حتى انتهت عليه الاستفهامات من كلا الوالد  
والأخ . وكان في مقدمتها السؤال عما قرأه من الدروس في ذلك  
اليوم . فصار يسردلها دروسه اليومية ، واحداً بعد واحد حتى  
أتى على آخرها الذي هو في فن « الحكمة والكيمياء » والذي جاء  
فيه : « ان جابر بن حيان الكوفي العربي الكبير هو المؤسس  
للم « الكيمياء » الحالية ، وانه اخرج الى العالم علماً هو اساس المدنية  
الاوربية وانه واضع علم « الجبر » ايضاً . وان ابا بكر محمد الرازي  
جالينوس العرب الكبير » هو مكتشف حامض الكبريت وكبريتات

الحديد، والجراثيم التي هي اسس الطب الغربي الحديث الخ . الخ»<sup>(١)</sup> .  
فما كاد يطرق هذا النبأ مسامع فريد حتى اشتأز والتفتحت اوداجه  
وقال في حماسة ونهور : -

عجبا ! هذا الانحال المفترى هو كل ما تدرسون ! وكل ما به  
تباهون كذبا ومينا ! ! من أين لأسلافكم بهذه المخترعات  
والمكتشفات وهم على ما درسنا أمة حاكية فقط وملة تقليدية لا عقلية  
ولا مادية ؟ ! الحق غير ما تَلَوْتَ يا رشيد ! فهذه الامور  
كلها غريبة المنبت والمنشأ بدون تردد ولا توهيم . انما علينا اقتباسها  
منهم مع عزوها اليهم وتعجدهم ازاء ما افادوا به الانسانية المطلقة  
من غير تمهيز ولا أثر ولا اثابة .

رشيد في امتعاض وتأثر - لا بأس عليك ! وانا غير عاتب  
عليك ! فهذا مبلغك من العلم ! وليس جاهل شيء مثل من علمه ،  
والتاريخ يغنيني عن اسقاط كلامك الفطير ، في مهاري التزييف .  
وأري لك ان تدبر مغزى هذه الآيات نابذاً عنك هراء السخافات  
فانما انت مثلي شرقي محض :

ان يفخر العربي بالعلماء من قومه وبنهضة شماء<sup>(٢)</sup>

(١) انظر مبادئ الحكمة والكيمياء للسفرجلاني طبعة ثانية من : ٣٧

وص : ٣٨ . (٢) من قصيدة للمؤلف .

فلشرق أمّ بنا نهضته التي يسطو بعزتها على الغبراء  
 هلا تذكرو يوم كان يجهله منخبطاً كخطب العشواء  
 نبيا صروح نهضة العلباء في الشرق تنطح قبة الزوقاء  
 وهنا ارتسمت على جبين الوالد الشيخ سليم بارقة جذل شفت  
 عن ملج استعسانه العظيم لردّ ابنه رشيد . وقال : -  
 - زللك الله علما وحكما يا ابني يا رشيداً كاسمه !

فالمعكس هذا الاعجاب نار غيرة حامية في فؤاد « فريد » ونهض  
 في ظلمة الاستياء ونهاية الكدر والانقباض . حتى إذا أظلم الليل ذهب  
 الى إحدى غرف القصر فارمى فيها ، وما زال ينفذ في النوم  
 المنكود حتى انفلق الافق عن قرص « ذكاء » <sup>(١)</sup> .

لنبيه فريد اذ ذاك ، فقام وغسل وجهه وكفّ به بصابون خاص  
 به ، وتناول الفطور ، وجلس خالي البال . . . فلما رآه اخوه رشيد  
 على تلك الحال نبهه الى ان هذا اليوم هو اليوم الذي تنفتح فيه  
 مشيخته فبالله لا يتبأ للغدو اليها ؟ انسياً ام ناسياً ؟

لم يفتن لذلك حتى وثب فارتدى بذلته التي هي من آخر  
 (مودة) وهبط راكضاً الى المدرسة ، فوجد زمرة من الطلاب  
 يعزفون بنشيد افرنسي لا يخلو في الجملة من دعاية استعمارية . . .

ولما فرغوا منه اودع كل فريق منهم الى الصف المقرر باسمه وفي الاول فريد  
ومرت دقائق فقدم اليهم المعلم ( الاجني ) المستشرق عبرانيا  
فقالوا له اجلاًلاً واحتراماً . . . ووقف هو حيث يلي عليهم درساً  
في علم الصحة . اسئلها بالعبارة التالية : -

- لفتت امامكم الساعة ايها الطلاب لآتي عليكم درساً في علم  
الصحة . واقول لكم قبل كل شيء ان الشرق مدين للغرب اولاً  
نشره مباحث هذا الفن الجليل في ربوعه بعد ان كان لا يدري  
فيه الا الاسم ، ولا يعرف منه غير الرسم . ولكي توفقوا ذلك يجب  
ان تخلصوا مؤلفات الغربيين الناطقة بلحق والهامنة بالحجج التي  
لا يمكن اخف قمارع ولا ان تدافع . وحينئذ لا غرو انكم تلجئون  
بذكراة وتقدرون مدينتا حتى قدرها حيث انها اسدت الى الانسانية  
جماء خيراً عظيماً ونفعاً عمياً من غير التفات الى اختلاف اللغات  
ولا الاجتمعات .

احد التلامذة مستشكلاً ومستوضحاً - قد قرأت في كثير من  
كتب التاريخ حتى الغربيي خلاف ما تقرره لنا يا حضرة الاستاذ  
واذكو الا ان من الآثار المتواترة منذ زمن اسلافنا الاولين  
للظلمة من الايمان . وهناك حديث مروى عن نبينا ( صلعم ) في  
فلك الاعرابي الذي حضر لصلاة الجمعة وثيابه متسخة فقال ( عليه

الصلاة والسلام) : «الا يجد هذا ما يفصل به ثوبه» . وهناك ثوبه عظيم عن مزايا حفظ الصحة اذ بها تكمل العبادة بما هو مدون في أسفار اسلافنا ، فالرجاء من حضرة الاستاذ ان يجعل لي هذا الاشكال بلطيف حكمته ودقيق معرفته :

المعلم متمتع اللون مفتاضاً - فبحث من طالب غيبي جهول !  
 انعارضني يا وقع ، ! بينما انا اجهد فكري واكرس ذهني لافادتكم  
 بيادى هذا الفن المقررة ، بانياً لكم بجئى على اصول العلم الحقبة التي لا  
 لا يختلف فيها اثنان . تباً لك يا جهول ! (وينادي المراقب في احتياج  
 وتحمس) - يا مراقب ! اخرج عنى هذا الحبيث ! واودعه غرفة  
 «الايقاف» لتجاوز حذود الادب ، وتعديه على برنامج المدرسة  
 الواجب الاتباع ، ولكيلا يعود الى امثال هذه المعارضة العمياء الشاذة  
 ابد الدهر ...

فريد ملتفتا الى المعلم في حياء ونواضع - في الحقيقة ان مثله  
 يستحق الطرد من المدرسة اسبوعاً كاملاً ليتزأى كما يجب ، ولئلا  
 يجرمنا من اقتطاف ثمرات علمك الناضر يا حضرة استاذنا المحبوب !  
 بعض التلامذة متحمساً - الواقع ان هذه اسئلة وجيبة  
 لا اعتراضات شاذة اوردها زميلنا على حضرة المعلم بقصد الاستيضاح  
 والاسترشاد ولكن ربما خافه الاسلوب بعض الشيء ، فالامل من

حضرة الاستاذ ان يشملہ بواسع عفوه ومجيب بما يبرد ظله ويقنعنا

معہ ۱۱۱

فيصدق اليه المعلم تحديقه الم غضب الحاقده ، ويعود الى اهل  
الدرس فاذا فرغ منه تولى عنهم . ثم يحيى خلفه وهو بالطبع من  
شكله . . . وهكذا حتى يتم وقت الدوام اليومي . فيؤذن للطلاب  
عموماً بالانصراف . ماعدا ذلك المسكين ، صجين ( الصراحة ) و  
( البحث عن الحقيقة ) .

من دأب هؤلاء « الغريبين » انهم - بالرغم من تشدقهم  
الزائفة - اذا صد عليهم باب الحق وأوذتو بالقلب . فبدلاً من ان  
يقرعوا الحجة باختها ، ثم يرضخوا للحقيقة الزائفة - انهم بدلاً من  
كل ذلك يلجئون الى القوة ويصوغون منها حقائق مسلحة . . .  
ولا عليهم من هذا التهافت فعندهم ان « القوة تخلق الحق » . .  
وهذا عين صنيع المعلم الأجنبي المستبد المفرور مع ذلك الطالب  
المستغهم البصير !

...

بقي التلميذ المشار اليه سجيناً بتلك الغرفة المظلمة الكئيبة طيلة  
ساعات عدة كأنما اتى بجنائيه سياسية واشترك في مظاهرة استقلالية ،  
نادباً حظه المنكود الذي ساقه الى هذه المدرسة التي هي في الحقيقة

« مذنب » مشيدة الجدران لصيد الضمائر والفتك بالحقائق - حتى قيل ساعة الطفل<sup>(١)</sup> . واذ ذاك صدر الاذن الى (البواب) بالعودة الى المدرسة واطلاق سراح الفتى المسجون ولكن بعد تهديده باللازم . فصعد هذا بالأمر وانطلق من توه الى المدرسة ففتح عن الطالب وانذره بموجب التعليمات التي تلقاها بشأنه . . .

اما هو فانه لم يكذب يعلم بخروجه من البوابة الكبيرة حتى ما هد الله انه لن يعود الى هذه المجزرة العلمية مادام على قيد الحياة . . . واستبطاه والده لهذه المرة . فذهب يمدو في الشوارع والازقة والاسواق باحثاً عنه في كل مكان بعدما اعطي الاشارات اللازمة عن فقدانه لدائرة الشرطة وسائر مراكز الأمن في البلدة .

وصادف انه بينما كان ماراً من الحي الذي فيه المدرسة لمح ابنه فهرول اليه ولم يكذب يدانه حتى ارتقى على احضانه باصياً مستغيثاً . وقص له ما كان من امره مع الامتاذ الاجنبي . . . وختاماً رجاء بكل تلهف ان ينشله من هذه الهوة السامة ويدخله في المدرسة الثانوية الوطنية التي هي جد ناصحة ومخلصة وراقية ( هي التي فيها رشيد ) فسمح له بذلك . واسترد النفقات . وتم انضمام ابنه هذا الملحوظ بعين السعادة الى المدرسة الموما اليها فكان من العبقرين النابغين .



اعتبر « فريد » في الدراسة على الأسلوب الذي يناسب أفكار المدير الأجنبي وسائر المعلمين ، متخذاً من رشوي النخف والدعوات اليومية سلباً بوصولاً لنجاحه . فما كاد العام الختامي للدراسة يتم حتى تقدم صاحبنا الى ميدان الاختبار بقلب هادئ وفكر مطمئن بالفوز فكان لذلك من الفائزين .

\*\*\*

اما اخوه « رشيد » فإنه لم يفتأ يُجِدُّ في دروسه بدرسته تلك الوطنية بكيفية عطفية اليه انظار سائر الاساتذة ، مُتَقِلّاً من صفية الى اعلى ، ومن سنة الى ارقى حتى دبت ايام الفحص النهائي فتقدم اليه بكل اقدام فكان في مقدمة الناجحين بحق والياقين بصديق .

\*\*\*

ها هما الطالبان الثوّمان قد استحصل كل منهما شهادة (البكالوريا) من كلتا ودرستيهما . وهما نحن سنرى ما يكون من امر كل منهما بعد الآن :

٧ = رشيد ينتظم في سلك المدرسة العالية الوطنية

تقدم « رشيد » الى عميد<sup>(١)</sup> هذه المدرسة العالية الوطنية :

(١) اي رئيس مدير :

« الدكتور عبد الله شاكر بك » - بشهادته التي حازها من الثانوية وطلب من حضرته ان يقبله طالباً لديه . فبعد اطلاع العميد على الشهادة المشار اليها اجاب بالايجاب في فرح واغتراب وعين له موعد الحضور .

ففي الوقت المحدود تأهب رشيد بما يلزم واسرع في نشاط الى المدرسة . وبعد ان اجريت الترتيبات النظامية توزع الطلاب على الصفوف . وكان صاحبنا « رشيد » في الصف الاول . وغب هنية دخل اليهم الاستاذ الاجتماعي الكبير « السيد محمد منير » . ثم ابتدا في املاء الدرس عليهم . فكان في علم الاقتصاد ، واستهله بشرح اسباب سقوط الشرق عامة والعالم الاسلامي خاصة والعربي بالاخص ، من الناحية الاقتصادية باسلوب طليّ جذاب خال عن التكلف والتعقيد والتمويه والتضليل ومما القاه في هذا الصدد : -  
 - ايقنوا يا ابنائي النجباء ان لسقوط بلادكم هذه اسباباً شتى اقتصادية وغير اقتصادية ! والذي يهمني ثلثيكم اليه الساعة :  
 الوجهة الاولى :

افيدكم ان من افدح ما نكبتم به في العصر الاخيرة عدم الاهتمام بالمسائل الاقتصادية التي عليها عمدة الحياة للأمم والشعوب خصوصاً في هذا العصر الكهربائي القاسي الذي ينتهج فيه القوي بقتل

الضعيف ليتخذ من رُفَاتِهِ<sup>(١)</sup> مادة يزداد بها قوة وعتوا واستكباراً  
وعلوّاً في الارض ... الخ . الخ .  
فلما اذن بانتهاء مقرره خرج من عندهم . والقلوب بمنطسة بحسن  
القائه واجادة بيانه .

وتوالت الدروس تعقبها الفسح حتى انتهى الدوام فعاد كل الى  
منزله واذ قرب « رشيد » من القصر ادهشه ملاحظته من وقوف  
والده امام البوابة الكبيرة على خلاف عادته كأنما هو في انتظار  
قادم . ولم يكذبصل اليه حتى ضمه الى صدره وقال له في حنوٍ  
الأب الروم :-

- فواك الله يا ولدي . فقد بلغني من حضرة العميد الساعة  
حسن سلوكك واجتهادك . بارك الله فيك .

\*\*\*

لم يزل « رشيد » مكباً على الدراسة بكل جد وثقانٍ مراعيّاً  
لنظام المدرسة بكل دقة ، حائزاً لذلك درجة « الامتياز » في عموم  
الامتحانات الخصوصية والعمومية حتى اكمل التحصيل العالي بحق .  
فصار يشار اليه بالبنان من بين سائر الاقران .

ولما لشخصيته البارزة من منزلة عالية في نفوس زملائه : اقاموا

(١) الرفات : العظم البالي .

له حفلة تكريم حافلة ، القيت فيها غرر الفوائد لتوحيها بنبوغه ،  
ورتل بها درر الخطب اعترافاً بميزته .

ولتفوقه العظيم عينه اذارة هذه المدرسة العالية التي تخرج منها  
اخيراً : « معلماً اول » فيها بمرتب مناسب لوظيفته .

فظل ينثر على الطلبة ما تحوبه كنياته من نفائس المعارف  
ولطائف العلوم بذلك الاستلوب الشهي المقيد . فما هي الا بضعة  
اعوام حتى تخرج على يديه خلق كثير من ثائثة الوطن الذين قاموا  
فيما بعد بشتى الاعمال العلمية والادارية في كفاءة واقتدار .

#### ٨ - رشيد يتقدم طالباً بكلية الحقوق

لم يكن الشاب النافع بلّة الاستاذ العبقري الصادق الى موارد  
العلم النيفة : « رشيد افندي » ليقنع بالبقاء والرسوب في هذه المهنة :  
مهنة التعاليم . وهي على ما تعلم ضيقة الارزاء محدودة الجوانب .  
فبذ السنة الثالثة لما رسمته هاته المهنة داخلته سامة من جانبها . سببها  
ما لاحظته من انه ان اخذ اليها خلود المستكين المستديم فسبقي  
آماله الراقية مسجونة ممككة في عالم الاماني . . . . لذلك فكر سيفي  
عاقبة امره طويلاً . فكانت نتيجة ذلك التفكير العميق ان صمم  
على مفادرة هذه الدائرة المحدودة ، لينطلق الى مالهه يكون كافلاً  
بتحصيل مستقبل ارقى . وذلك بالالتحاق بكلية الحقوق الوطنية

التي يعلم الله إذا تخرج منها يفتح امامه باب واسع من العمل الطهر  
والسعي المفيد الثمر .

ولكنه وهو العالم بالأثر السيئ الذي يخلقه غروجه هذا في  
قلب العبد الطوفان فكر ملياً ايضاً في السباير اللازمة لاسترخائه من  
دون انزعاج ولا تكدير . وإذ تم له ما أراد اعترف بحبه بحبه اخرى  
وفي افناء ابيه بالفوائد الجلي التي سينها من فعله مما ثم  
استعداد موافقة فمساعدته .

وكانت ليلة فمرة زاهرة سرى النسيم فيها عليلاً الى انحاء  
الحديقة الممتدة الانيقة المحتفة بالاضواء المبدع آثار النسيم منها حفيفها  
موسيقياً جذاباً وافق ان الوالد الشيخ سليماً عاد في تلك الساعة  
من صلاة النساء فأتى آثار ذلك الجمال الطبيعي الاخاذ ثمال الى  
كراسي مصفوفة بوسط تلك الحديقة للقاء وانكأ على احداهما  
مستشفقاً عبر الازهار الفائح متمتعاً بمنظرها الجليل وصادف ان  
لاحظه رشيد في تلك الحال فحرف اليه قائلاً في نفسه لها الفرحنة  
منعت . وبادر بأن انما ثم جلس بالكرسی الذي على يمينه في  
صمت وتواضع فكانت من الوالد نحوه ملاطفات جنة شبعته على  
عرض طلبته بالملو به اللطيف الساحر .

رشيد يخاطب والده مستمعاً - أطال الله عمر سيدي الوالد في

سعادة . وبعد فهل يأذن لي مولاي بعرض أمنية فريدة طالما  
حاكت في صدري عدة اشهر

الوالد - قل يا بني ما نشاء : لا زلت موقفاً باراً

رشيد - اني بفضل الله ثم بحسن عطف الوالد وعنايته قد  
كنت اكملت التحصيل التمهدي فالابتدائي فالثانوي فالعالي وقد استحصلت  
على شهادات الجميع من اعلى الدرجات كما في كريم علمكم . ولقد  
كان أن اتخني حضرة عميد المثالية فضلاً منه وحسن ظن بي ( معلماً  
اولاً ) فيها ولكني مع ذلك لا ازال أراني في تضجر من المكث على هذا  
الحال . ذلك لما ادركه من نقص معلوماتي . وفي وسعكم يا مولاي  
اكمال نقصي وسد خللي

الوالد بكل حنو - لبّدي ما في ضميرك يا ولدي بكل صراحة  
( بارك الله فيك ) فما انا من المتكفين .

رشيد - نعم يا ابت : الذي اعرضه على مسامعكم الكريمة  
رغبتي الوحيدة في الانضمام بكلية الحقوق الوطنية الاسلامية لأحوز  
درجة التخصّص في هذا الفن الباهر الذي أصبح وعليه المعول في  
تصريف الشؤون البشرية الكلية والجزئية .

الوالد - هذا كل ما تروم : اهنأ فاني جِدُّ موافق : وما عليك  
إلا الاستعداد ؛ وعلي هاتل الإمداد :

وفي صباح تلك الليلة ينهياً «رشيد» لدخول الكلية فيمضي الى عميدها واذ يعرض عليه غرضه يقابله بكل بشاشة وحفاوة ويأمر فيقدم الى هذا الزائر الكريم «اكواب» القهوة العربية حفاوة به وترحيباً . فما يعود الصباح الا وقد تم دخوله الى الكلية المذكورة وما هو قد اصبح من جملة طلابها بالفعل بعد ان كان بالامس القريب «معلماً اولاً» بالمدرسة العالية ، و«استاذاً» من خيرة الاساتذة .

وكان رشيد في حالته الدراسية على ما تعدد من اجتهاد ونشاط وما برح على تلك الحطة الناجحة يترقى في معارج السكال حتى اذف<sup>(١)</sup> الفحص الختامي فاقفحه بكل بسالة ونشاط واخيراً خرج من مضماره حائزاً قصب السبق والفلاح .

اقام والده له بمناسبة تخصصه وحوزه رتبة ( الدكتوراه ) في الحقوق ) حفلة شائقة جاءت في نظام «بديع» وترتيب بهيج . وبعد عدة ايام اعلن «الدكتور رشيد» على صفحات الجرائد السيارة بانه سيمتهن «الحاماة» نصرة للحق والباطل ، وللضعفاء على الاقوياء ، ونشلاً للابرياء من سجون التهم الباطلة الخرفاء . . . ولما هو مشهور به من حسن السيرة والعدالة ومع المقدرة الفاتحة

انتهت على « مكتبة » بالشارع الجديد « رزم » الوكالات كبرها  
وصغرها . فكان قديراً في كلا هجومه ودفاعه ازاء الحق بما طلبها  
من نباط قلوب القضاة واجبرهم على الحكم له والرضوخ لما يقرر:

٩ - رشيد ينقلب في المناصب العالية

ظل « الدكتور رشيد » محامياً بارعاً محبوباً مشكوراً . ومازال  
اسمه وصيته يكرران في القلوب وتنسج دائرة تمجيدهما واطرائهما  
في الاسماء والاعمال الى ابد ابدي .

لذلك كثيراً ما تناقلت الاندية العامة والخاصة اشاعات واقتراحات  
بترشيحه لعدة مناصب عليا ليقيد الامة من واسع خبرته وجليل  
مقدوته بما هي في حاجة شديدة اليه .

وانفق ان جدد انتخاب اعضاء مجلس إدارة تلك المدينة فانتخب  
الحامي العتري « الدكتور رشيد بك » بالاغلبية الساحقة - عضواً  
فخرياً في المجلس .

ولم يمكث هذه العضوية عاماً كاملاً حتى طار ذكره في  
ارحاء الولاية بسبب ما يديه من قيم الملاحظات الاصلاحية ،  
وما يعرضه من اقتراحات بشأن ترقية المشاريع العمرانية والاقتصادية  
في المدينة الكبرى .

لذلك سرعان ما رشح عضواً في مجلس « النواب الكبير »



فانتخب بالاكثرية العظمى « فائداً محترماً » فيه عن اهالى تلك المنطقة بأسرها . فصار عمادها الركين ، ولسان حال مواها المبين .

لبث في هذا المنصب الكبير ثلاث سنوات متواليات . وفي الرابعة صدر « مرسوم ملكي » عالٍ بناءً على ترشيح الامة على لسان حالها « الجرائد الوطنية المختصة » بترقيته الى منصة « رئاسة » ذلك المجلس الخطير نفسه .

وعلى الأثر انعم عليه « برتبة باشا » الفخمة بمرسوم ملكي آخر . وهكذا اصبح التلميذ « رشيد » بفضل جده واعتدال مسلكه وأخلاصه : لوطه ونفانيه في تقديسه — رئيساً لأُمته بأواهبها نفسها .

ومن بعد ان كان يدعى بـ « رشيد » مجرد اسمه عن القاب التعظيم كسائر التلاميذ صار الآن لاينطق باسمه الكريم الا مقرونا بقلب « باشا » الافخم .



#### ١٠ - التحاق فريد بالمدسة العالية الاجنبية

لقد مر بك ان « فريداً » حاز « البكالوريا » من مدرسته الثانوية الاجنبية والآن سنأتي لك بصنيعه بمدئذ :

انه حسب مبدئه الدرامي قد ازمع اللحاق بمدرسة عالية من طراز الثانوية المذكورة واذ وافق والده على رأيه هذا انطلق مهرولاً الى مديرها الاجنبي هو الآخر حاملاً بيده الشهادة الاخيرة . فكان من هذا ان احتفى به لانه عمل « في نظره صالح » ثم قيد اسمه في الطلاب الجدد بدون ادنى تردد . غير ان نفقات الدراسة بهذه المدرسة باهظة بالنسبة لما تقدم . فهي سنوياً ستون ليرة . وفي بكرة اليوم الموعد نهض من النوم في نشاط . وما هي الا لحظات يسيرة حتى ارتدى ملابسه وهبط مِئِمّاً<sup>(١)</sup> شطر المدرسة . واذ دخلها لاحظته المدير الذي لما تحقق ان القادم هو الطالب « فريد » دعاه في تلطف واكرام ، ثم قال له : —

لتحيي ايها الطالب النجيب ، الفريد ! فلقد تأكدنا نبوغك وتفوقك الباهر في جميع حلقات الدراسة التي تتجاوزتها بالمدارس الراقية من تحضيريتها الى ثانويتها . والذي نرجوه ان تحقق فيك آمالنا وتصدق فيك فراستنا العالية !

لم يصل صدا هذه الملاطفة الابوية الى مسامع التلامذة المصطفين حتى انعدت في قلوبهم شعلة الفيرة متسائلين فيما بينهم : من هو هذا الطالب الذي استحق من سعادة المدير كل هذه الملاطفات النادرة ؟

اما هو فلا اكتحك انه قد كان يطير على اجنحة السرور اذاه هذا الالتفات السامى الذي هو غاية مناه من دينه ودنياه .

وبعد هنيهة اجرى فيها اللازم بموجب الاصول المدرسية أوْعزَ الى كل فريق بدخول صفه . وكان فريد طبعاً في الصف الاول منها . وما استقروا على مقاعدهم حتى وافاهم المعلم « طليق افندي » وابتدأ في إلقاء درس عليهم كان في التاريخ البشرى للعام . فبينما هو يشرح لهم الادوار الاولى للأنسان اذابه يتدرج من هذا البحث الى الايقاع بعرض التاريخ الشرقى عامة في كل القرون الثلاثة : الاولى والوسطى والحديثة .

واذ اتم درسه ولامم الادبار . . . . (والى حيث التفت . . . . ) واتى من يَلِيهِ حسب النظام المقرر . وهكذا حتى انتهى زمن الدوام بذلك اليوم .

عاد الطلاب الى ذويهم وصاحبنا « فريد » الى منزله . هذه المرة لم يباحثه الوالد ولم يستفهمه عن اى شأن من شؤون المدرسة سوى أنه بعد اطرافه طويلة التفت اليه فإوصاه من تلقاء نفسه بالمحافظة على تعاليم الدين الاسلامي الحنيف ليضمن لنفسه كلا جانبي الفلاح الدنيوي والاخروي .

( فأوما فريد برأسه في اظهار امتعاض وتأثر وقبول ) .

ولكن باليت شعري ! ماذا نغني تلك الوصية ، بل ماذا تجدي هذه الايام الماكرة وفريد قد رسخ في ذهنه صحة هذه القضية وثبوت تيجتها :

( سيدي الوالد شرقي صميم ، وكل شرقي صميم فهو مخرف ، وكل مخرف تجب مداهنته مؤقتا مادام يوجد هناك احتياج اليه ) ؟  
 ذلك ما طرق فكر فريد في لحظة نصيح ابيه اياه . فعمل بمقتضاه وفي الواقع فهذا بعينه هو ما يتطرق الى كثير من امثاله في امثال هذه المواقف الحرجة ...

واذا فان الوالد « وهو السليم الذية » بلاريب قد اغتر بظاهر حال ابنه فريد ازاء نصحه الوحيد ..

\*\*\*

انت تدري ان هذه المدرسة العالية هي من قبيل سالفتيها :  
 الابتدائية والثانوية . واذا فانت مدرك معنائها ( وهي العالية .. )  
 ادري باساليب الافساد والتضليل ، والخداع والتويه .  
 واذا فقد وجدت من عقلية فريد مرتعا خصيبا ليزر ما في  
 جمعيتها " من سموم فتاكة وجراثيم قتالة .

١١ - فريد واغراآت زميله الفتى الفرنسي

كان بالصف الذي فيه صاحبنا « فريد » وطى مقربة من مقعده فتى من اسرة افرسيه اتخذت من ذلك البلد الوفير الخبرات النضير الجنات - وطناً ثانياً اغتناماً لفرصة التمتع بين ظلاله الوارفة وغيوثة المكدقة على ما اعتاده كثير من برؤساء ومنكوبي « الغرب » الذين ينضب ماء المعيشة في وجوههم ببلادهم فينثالون على الشرق زرافات ووحدانا ليُسبِعُوا سَفَبَهُمْ <sup>(١)</sup> وأطاعَهُمْ مِنْهُ بِاسْمِ التَّمْدِينِ والتَّعْمِيرِ ... وكان هذا الفتى الفرنسي مَرِحاً براق العينين غائرهما مجداً في نلقف وحفظ دروسه . ونظراً لبعض تلك الحِصَالِ فقد اتخذ منه « فريد » ذلك الصديق الودود .

فصار ديدنها <sup>(٢)</sup> في أغلب الاحيان : ان يتناوبا في تناول الطعام . فرة يتغديان معاً بقصر ذاك ، واخرى يتمشيان سواء بالفندق الذي تقيم فيه عائلة هذا .

وطى توالي الايام استحكمت بينهما عرى الصداقة والمودة أيما استحكام .

فكشأ اليقين لا يكادان يفترقان ، اللهم الا في ساعات المنام . وكان دأب الفتى الفرنسي مع صديقه فريد محاولة اقناعه دائماً

(١) السب : شدة الجوع . (٢) الديدن : العادة .

بمظلة مدينة الغرب مع الازدراء من طرف خفي بماضي الشرق  
كافة والعالم الاسلامي العربي خاصة ، والانذار بتعاسة مستقبلها معاً .  
وكان هذا الانذار ، وذيانك التبشير والتنفير : عملاً باواصر كان  
يتلقاها من عميد هذه المدرسة العالية الذي يَمُتُّ<sup>(١)</sup> اليه بقراءة  
نخب ، والذي طالما أغدق<sup>(٢)</sup> عليه وابلاً من الانتقام مقابل دعايته هاته  
الطبية في نظره الوحيد !

ولم يكد الفتى يشعر بقرب انقضاء امد دراسة خليفه فريد حتى  
جعل نقطة ابحاثه المستمرة معه - اغراؤه بالقيام برحلة الى قارة  
اوروبا عامة وبالاخص عاصمة فرنسا المدهشة ، « باريس » ام العلم  
والانس والجمال ، باريس ام الحضارة والترف والنعيم ، باريس « إرم »  
القصاد ، التي لا يوجد الآن مثلها في البلاد ؟

ويعزّز له هاته الفكرة بقوله في خداع ودهاء اوروبيين :  
والذي يحملي اعتقد انك ستتهناً وتسعد في هذه الرحلة الميمونة  
باعز يزي ما ابشرك به الساعة من ان لسيدي الوالد بتلك العاصمة  
الحالدة اصدقاء كثيرين من ذوي الهيئات والشخصيات البارزة -  
نظراً لاننا من سلالة النبلاء الاجداد - واذا التمسْتُ منه ان يكتب  
لك اليهم توصيات خاصة فلن يتأني بتاتاً لما يعلمه من الارتباط الودي

(١) اي يتوصل اليه ويتصل به . (٢) اي امطر عليه .

الذي بيني وبينك . وعلى كل فمذا متوقف على استحضارك وإشارتك أولاً  
وبالتالى على موافقة والدك الوقور !

صادف هذا الاقتراح هوى كامناً بين جوانح صاحبنا فريد .  
لذلك سرعان ما اجاب صديقه الفرنسي في كل بشاشة وامتنان :  
- اجل يا عزيزي الوحيد اني لمستحسن جداً لهذا الاقتراح  
الذي له الذي ابدته لي كصديق مخلص يهيمه سعادة ورفاهة صديقه .  
لذلك اقدم اليك شكري الجزيل مؤملاً ان تقابله بالقبول .  
على ان هذا لا ينعنى ( نظراً لقاعدة : اذا ثبتت الالفة سقطت  
الكلفة ) ان اصرح لك بانه « اي الاقتراح » هو شيء كان يدور  
بخليتي منذ عدة اعوام

والذي اعلمه من سلامة وعطف قلب ابني سليم نحوي : جعلني  
اعتقد من قبل انه لن يقف حجر عثرة في سبيل اتمام ما ارغب  
فيه من هذا الشأن . ولكن على شريطة ان اهد له الوسائل  
اللازمة : « وأنوا البيوت من ابوابها » ولا اراها منهيثة الا بعد  
خروجه من هذه المدرسة ونيل شهادتها العليا : هناك اذا طلبت  
من الوالد الموافقة على الزواج <sup>(١)</sup> الى باريس باسم التخصص فلن يمانع .  
وهنا ترسم ابتسامة سرور وشكر على وجه « الفتى الفرنسي »

نظراً لما أبداه فريد من حسن الظن به ، ولحسن ما أبانه من الحيلة  
للتوصل للفرض المنشود .

وها دور الاختبار النهائي قد قدم . ولم يكده بتقضي حتى  
بشر فريد بالنجاح

ولما تناول شهادة « الليسانس » اسرع بها نحو أبيه متهللاً  
ضحكاً . لينتهه أولاً بفوزه العالي ، وليؤكد لديه ، بالثاني علو همته  
تمهيداً للأمور المقصود .

ولم تكن تصل هذه البشرية القيمة الى مسمع الشيخ سليم  
حتى خفي فؤاده خفقة المأخوذ بالسرور العميق . وقد حاول  
كتابتها ، ولكن محاولته ذهبت سدى !!

فالفرح والحزن معاً اذا تملكنا ناصية الفؤاد فاني لبشرة الجبين  
وهي الشفافة اللطيفة ان أستطيع حجبهما ابل انها بقوتها الهائلة  
سرعات ما يخرقانها فيغشيانها كما يغشي الليل النهار والليل  
سواء بسواء .

وما يكاد « فريد » يفطن بهذه الظاهرة التي استولت على  
مشاعر أبيه حتى ينبري <sup>(١)</sup> لعرض رغبته العالية في التخصص من مهد  
العلوم ، مرتجلاً شبه خطبة للسماح له بالترحال الى العاصمة : باريس ،

(١) اي بتعباً ويستعد باهتمام .



عاصمة العلم الحديث مبيتاً ما يعود عليه وعلى الوطن من رحلته هذه  
من فوائد ادبية جلي لا يكاد يأتي على وصفها اللسان، حيث ان  
غرضه الوحيد وغايته المقصود الانتظام بسلك احدى معاهد  
العلمية الكبرى لاستكمال « رتبة دكتور » في الفلسفة والآداب معاً  
ولما تعلم من الشيخ « سليم » من سلامة الضمير، وطيبة الجلال  
قابل طلبه نجله هاته بالاجاب :

وفوق ذلك فقد اكد له انه مستعد في اي وقت شاء فريد  
نفسه بتقديم المساعدات المادية والادبية اذا كان منه تصميم وعزم .



## ١٢ - الاجار الى باريس

ومما هي الا أيام حتى تأهب « فريد » للرحلة المقصود على  
استئذان ورضاء من ابيه فنفذه <sup>(١)</sup> هذا بما يلزم له من نفقة .  
بأن يطير اليه « برفية » بسرعة حال وصوله بحط رحاله « بالسلامة »  
ليطمئن على سلامة الوصول .

ها هو فريد على الرصيف يعانقه والده الشيخ معانقة الوداع ،  
راجياً ان لا يجعله الله آخر عهد به - ؛ وموصياً اياه بالمحافظة على

السير الحسن حتى لا تخلبه تلك <sup>(١)</sup> المناظر الفتانة ، وبالمثابرة على الاجتهاد ليسرع الأوبة عند انجاز المهمة العلمية الخطيرة التي يفترب من اجلها .

ثم هاجي الاسرة المؤلفة من شقيق فريد : رشيد ، وابن عمه وخاله وصهر ابيه - محتفة به ، تدعو له باسان واحد وقلب واحد بالتوفيق وسرعة العودة والسلامة من احوال هذا البحر الهائج .

...

اقلت الباخرة « الايطالية » التي اقلت <sup>(٢)</sup> فريداً عن « المرقأ » وسارت الى الامام ، شاقة عباب <sup>(٣)</sup> اليم <sup>(٤)</sup> الخضم <sup>(٥)</sup> ، ماخرة <sup>(٦)</sup> امواجه المزبدة المائلة في تجاهل واطمئنان : تحمل فريداً وغير فريد . والابصار حائمة وراءها عطفاً واشفاقاً حتى غابت عن الانظار تماماً .

ثم ما هي الا ايام معدودة واذا بموزع البرقيات يقدم لسليم « تليفافاً » من ابنه فريد يبشره فيه بوصوله الى باريس في صحة وسلامة وفق ما يبتنى .

وبعد بضعة ايام اخرى توافي الوالد منه « برقية اخرى » يخبره

(١) اي لانفتته . (٢) اي حملت . (٣) اي امواج . (٤) البحر . (٥)

البحر العظيم . (٦) اي قاطعة امواجه في سرعة وصوت .

فيها بانه قد تم انتظامه بسلك احدى الجامعات العلمية العظيمة  
باريس نفسها . ويلفت نظره الثاقب الى ان نفقاته الدراسية  
لثلاث السنوات التي يقضيها هناك لنيل رتبة «الدكتوراه» يجب  
ان تكون ضخمة .. ليظهر امام المتعين الى الجامعة بالمظهر المناسب  
حتى يزداد الاعتناء بشانه من قبل الاساتذة والعديد .

دعا الشيخ ابنه «رشيداً» فاطلعه على هذه البرقية .. فما كان  
من هذا الا ان طفع وجهه بالبشر والمزور . ولكنه سرعان  
ما اكتسى بعارض من التأثير ثم قال : -

- احسن اخي فريد فيما اشار اليه من جهة ضخامة نفقاته  
فهو هناك كما لا يخفى على انظاركم السديدة يا مولاي في ارفه  
عواصم اوروبا وانخمها فأحر به ان تثل نفقاته نفقات اقاربه  
هناك :

غير أنني يا سيدي الوالد يسؤني ان الوح لك بما تفرسته من  
نيات ومقاصد فريد التي لا تتفق مع المظهر الذي تظاهر به في  
رحلته هاته . والمستقبل كشاف . وغاية ما اقول : -

- كفاه الله شر مزالقي الحرية المشثومة المضاربة اطناها بتلك  
القارة النازحة <sup>(١)</sup> .

وساد صمت بضع دقائق . نطق الشيخ إثرها بهذه الجملة في صوت خافت منهدج :-

- وانا ايضا انقرس .... ولكن .... وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعلى كل فانا ما ساعدته على انفاذ امانيه الا رغبة في الوفاء بسابق عهدي ....

هنا ما دار بين الشيخ ورشيد عن فريد بمناسبة البرقية الاخيرة الواردة الى الاول من هذا .



١٣ - المراسلة بين فريد ورشيد :

وتمضي ليل وإيام اثر ذلك ، ويوافي البريد «الخارجي» حاملاً الرسالة التالية من فريد الى اخيه رشيد :

باريس في ١٥ اغسطس

شقيقي رشيد :

لاول مرة اثر وصولي للمدينة «الخالدة» باريس تراني أحرر اليك رسالتي هذه لأعطيك صورة مصغرة مما احتاط بي من الذكريات والشواعر أزاء هذا المحيط العظيم .

وفي الواقع فاني لا أكتفك اني اجدني في هذه الساعة على جانب

عظيم من الخبرة والدهول بما اودعته في نفسي هذه المشاهد الراقية  
المدهشة من آثار الحضارة الاوربية المجيدة القائمة على أسس العلم  
الصحيح ومعجزات البخار والكهرباء :

الآن دقت الساعة عشرة صباحاً - ؛ وقد حى وطمس الاعمال  
المختلفة فلن ترى ايما تضع بصرك في هذه الميادين الواسعة الا  
نشاطاً مستمراً وحركة مطردة . فلا عاقل منشول ، ولا مقطوع  
ولا ممنوع !

و يعجبني « ابن الغرب » في بذلته الافرنجية ، راكضاً في  
ميادين السعي الحثيث لا يعرف معنى للفتور ولا سبيل للكلال  
والاعياء الى قلبه الحديدي الجبار . فتذكرت عندها حالتكم البائسة  
المحنة : معاشر الشرقيين فما وسعني إزاء الحقيقة الملموسة الا التصريح  
لك : بانكم مجموعة امم همجية كسلى وان همجيتكم هذه ليست بابتة  
اليوم ولا كسلكم بوليد هذا الاس التاهب ، بل انما هما عريقان  
فيكم منذ عهد الاسلاف الاولين الذين علمناهم في كل أدوار تاريخهم  
( كما تلقيناهم بالمدرسة الاجنبية الابتدائية من قبل ) - ألقاً للبطالة  
وعشاقاً للرسوب في حماء الحرافات والاساطير التي لا تتفق مع المنطق  
السليم والعقل القوي .

واذ ذاك ايضا صرت بذهني نظرية المدينة العربية الغابرة<sup>(١)</sup> التي طالما تغنيت لي بها في البلد . . فلما قابلتها على ضوء التمهيد والعيان بهذه الحضارة الغربية الزاهية وجدت الامر كما كنت اصرح لك به حينئذ ( الاشارة الى المحاوره التي جرت بينهما بشأن جابر بن حيان وابي بكر الرازي وقد مر ذكرها ) .  
فبالله عليك قل لي : هل اوجدت المدينة العربية كناطحات سحاب امريكا او هل اخترعت كجهاز « ماركوني » او استحدثت ك « بالونات » زبلين ، او كان بها كمتاحف وجامعات باريس ، او . . او . . لاشي من ذلك كله في المدينة العربية البائدة مطلقاً ؟

اذاً للحقيقة التي يجب الرضوخ بها ان نستيقن جميعاً ان مدينة العرب هباء منشور بالنسبة لمدينة « اوربا » الحديثة الميكانيكية ! هذا وان في النية ان سأجعل هذا الموضوع الخطير : موضوع الكتاب الذي سوف اقدمه للجامعة التي انا فيها الآن - لنيل رتبة الدكتوراه في الآداب .

وبعد فقد اطلت عليك : واخيراً اقول لك ليس الخبر كالعيان ولا الوصف كالشاهدة .  
التوقيع : « فريد »

لم يئنه « رشيد » من ثلاثة هذه الرسالة حتى اشتعلت في قلبه جرة  
الغيرة والاستياء الشديد . فتناول القلم من ساعته وحرر الى « مراسلة  
فريد » الرسالة الآتية في تدمر<sup>(١)</sup> واغتيال ، واودعها في البريد  
القائم الى باريس في اليوم التالي :-  
اخى فريد ! ارشده الله :

تحية . وبعد فقد اخذت رسالتك التي ارختها بـ ١٥ اغسطس  
والتي كتبها اليّ ابتهاجاً بمناسبة بلوغك الى باريس التي تصفها  
بالخلود ...

وكم كنت مسروراً حين فضضتها<sup>(٢)</sup> ، ثم كم عدت آسفاً  
متكديراً بعد ان تلوتها . اغلاط جمة ، وأطرف فاحش قاذك اليها  
معلموك المضاؤون . فجئت اليوم تصارحني بها في وقاحة متناهية  
برسالتك هذه المشثومة ...

تصف باريس بالخلود !!! ومن انباك بهذا ؟ ! وهامم ابتازها  
المفكرون يندرون ليل نهار بقرب انهيار صرحها ، وذبول نضارتها  
ذلك لشيوع الادواء الاجتماعية والفوضى الاخلاقية هناك . فقد  
صارت « المواليد » ثقل في تلك الانحاء يوماً اثر يوم - بينما سبل  
الوفيات جد منهم<sup>(٣)</sup> ...

(١) اي غضب . (٢) اي حين فتحتها . (٣) اي سائل بكثرة وقوة .

فكانت المفطنة والواقف المحسوس يقضيان طيك - فانت المفكر  
الجرى - بالتأمل والتأني في وضع لفظة « الخالدة » اثر كلمة « باريس »  
تمشياً مع مبدأ المصراحة الذي اخذت على نفسك اتباعه ١١٩

ووصفت لي اندهاشك العظيم من آثار الحضارة الاوروبية  
القائمة على ركن العلم ومعجزات الكهرباء والبخار ..

وقدحت بفحوى اطرائك لتلك المدينة - زبد الخط من حضارتنا  
الشرقية الباهرة ...

وكأني بفكرك الساذج يا فريد ! وقد حبل بينه وبين التأمل  
في مآثر اسلافنا القديين لم يدعوا باباً من ابواب التمدن الا وجالوا  
فيه جولة صادقة لا تماثل ولا تداني !

وهلا نذكر تلك الايام البيضاء التي كان رجالا الغرب  
يفتخرون بترجمة تاليف الاجداد ، ويتلني العلوم والفنون في  
جامعاتنا العلمية الكبرى ببغداد وقرطبة ودمشق ومصر .

فليتك في هذا الرأي كنت على الاقل كنزني مطعم ومعتدل  
لتعلم عن هذه الآراء الواهنة المزينة ، واذا ذاك تذكر ما قام به آباؤك  
الكرام في سبيل تشييد صروح المدنية - مما على انقاضه قامت  
قصور هذه الحضارة الغربية المادية التي سلبتكم مظاهرها شعورك :



وذكرت انك لا ترى عاطلا ولا متسولا ، ولا مقطوعا ولا ممنوعا  
قبل كل شيء الفت نظرك الى تلك الحكمة العربية القائلة :  
« وعين الرضا عن كل عيب كلمة »

نحن هنا الساعة نقرأ في شتى الصحف الغربية المعتمدة المبثوثة  
بين ايدينا ما يدهشنا وينقض مزاعمك الخيالية المضحكة . وذلك من  
اتساع هوة البطلة الضاربة اطنابها في تلك الاصقاع بين « ملاين »  
العمال مما يجر الى فوضى عامة ، وثورات طامة يقوم لمولها الغرب  
ويقعد وهذا بعكسنا نحن « الشرقيين » فاننا بالرغم عن تعداد ازماننا  
الاجتماعية والاقتصادية ، ونشتت شملنا وفقرنا المادي الحاضر لانزال  
نفتخر بحق - بمواسننا لمساكيننا وفقرائنا باسراهم معان طيبة  
خاطر في اموالنا بقدر الممكن ، وذلك مالا يدع لهم محالا لفكرة القيام  
بأية ثورة هدمية بتأني منها الحراب والدمار والانقلاب .

وقول لي اعجبك ابن الغرب في بذلته الافرنجية فاستأت من  
حالتنا - اى من بذلنا الفضفاضة . . . وارنكست في هذا الاستياء  
وذباك الاعجاب في طينة التهويش :

ويك ! ألم تسمع ببناء اجتماعي واطباء الغرب نفسه بان الصحة  
والنشاط جائان في طيات هذه « الملابس الشرقية » التي تعيبها من  
طرف خفي ١ - بينما هم انفسهم يحاؤون بخطورة الاضرار الصحية

التي نشأ من ارتداء ثيابهم<sup>(١)</sup> وسقم المتصقة بالاجسام ، التصاقاً يجبس  
نفس المسام ...

وتجاهر بهمجيتنا نحن الشرقيين ، في وقاحة كوقاحة طوائف  
المبشرين المستعمرين ، وتدعي انها تالدة فينا وسليلة اسلافنا العاملين  
وكانك بهذا الدم اجني عنا ..

ونقيد هرائك في هذا الصدد اغنائي عنه عزوكه الى الدين

سميت ...

وابنت لي يا فريد ١ عن مبلغ جهلك بتاريخ امتك العربية  
المجيدة جهلاً لا اجد له مبرراً اصلاً .. وذلك حيث نوهت لي  
عن موازنتك الحقاء بين حضارة اسلافك والحضارة الغربية الحاضرة  
فحكمت لهذه على تلك بدون استعراض الماضي واستقراء الحاضر .  
وفي الحقيقة فانت في نظريتك هذه « نصف » معذور .. اذ إنك  
لم تدرس من تاريخ الاجداد الا القشور مموهة ومصبوغة بصبغة الاستعمار  
والتزييف . والذي انصحك به ازاء هذا الجهل الشائن ان تعود  
تدرس العلم من مبدئه من جديد .

هذا وفي الختام ارجو لك السداد بعد الفهم والرشاد بعد التيه والسلام

في ١٢ ربيع الاول « التوقيع : رشيد »

وكتب بأسفل الرسالة الملعونة الآتية :

أمرني الوالد بأخبارك انه بعد بضعة ايام سيبعث اليك بمبلغ من النقود يكفل لك الطمأنينة من جهة النفقات . وذلك بعد ان يحقق اجتهادك هناك مع حسن السلوك كما اوصاك به سابقاً .  
« التوقيع رشيد »

١٢ - اغتباط فريد بنجاح الحيلة وحوز الغنيمة :

وصلت هذه الرسالة الى فريد ففضها في تلف واستطلاع . وما اوشك ان يأتي على آخر الملعونة المذكورة بذيلها حتى دبّ الى جسمه مرور عظيم اذ ايقن بتمام « الدست »<sup>(١)</sup> على الوالد السليم . اما ما كيل له بها - اي الرسالة - من الفاظ التقرير والتنديد : فلم يكن له أثر ما في فؤاده . لان الذي تظاهر به في رسالته السابقة شيء ، والهدف المقصود منها الآن شيء آخر .

\*\*\*

والواقع ان « فريداً » لم يحمله على انتجاع القارة الاوروبية النازحة وبالاخص عاصمة فرنسا الخلافة<sup>(٢)</sup> - شدة الشغف بارواء الظلم العلي كما كان يقول ، او الغرام باكمال التشقيف الفكري بالتخصص كما كان به ينشدق دائماً بل كانت له غير ذلك مآرب اخرى كانت مطوية

(١) الدست : الحيلة . (٢) الخلافة : الفتنة .

في عالم «الصدر» وسعى بذلك التظاهر الذي نَمَّ عن فكرته الأساسية - إلى اشباع نهمة<sup>(١)</sup> منها ...

فهو إنما كتب رسالته تلك التي هي في غاية التطرف - إلى أخيه رشيد توطيداً للنجاح حيلة استدراها مع النفقات من اية المطوف . حتى اذا استلم كتاباً مسجلاً منه ، مضمونه ( بعد ابداء رضاه عليه ، والابانة عن اغتفار نزواته<sup>(٢)</sup> ) الفكرية ازاء اغترابه للارتواء من مناهل العلم - اعلامه انه رغبة في انجاح مشروعه الدراسي الجليل : رسم له خريطة تشجيعه النهائي وفتح امامه طريق تشويقه التام . وذلك باراحته من التفكير في امر النقود والنفقات . فارسل اليه « شيكاً » على احد البنوك هناك ( وسماه وعين له موقعه ونمرته المخ مايلزم ) - بمبلغ الف ومائتي ليرة انكليزية . واخبره انه اوعز الى مدير ذلك البنك بوضع هذا المبلغ برمته رهن اشارة ابنة فريد الطالب بالجامعة « الفلانية يياريس » .

فما قرأ فريد هذا الكتاب الاغر حتى لمعت على جبينه بارقة الجدل العميق وسرعان ما اختلق وسيلة غير شريفة لطرده من الجامعة طرداً نهائياً فابعد عيمدها عنها وانذره بعدم العودة مطلقاً ، ودوّنت<sup>(٣)</sup> الخطيئة التي ارتكبها والتي نفي من اجلها حذاء اسمه من دفتر الجامعة .

(١) النهمة : الشهوة (٢) اي وثباته (٣) دونت قيدت .

قابل هذا الابعاد بكل بشاشة وسرور  
وهروا من وقته الى حيث المبلغ المؤمن باسمه في المصرف<sup>(١)</sup>  
فاسئله دفعة واحدة .

والآن أتدرى الى أين يطير ١٢  
ذلك ما سنبينه لك في الفصل التالي :

١٥ - الغرام باحدى كواكب التمثيل  
إن لبَّ صاحبنا فريد كان دواماً يرفرف حول ذلك المسرح  
البهج الحاوي - عشرات من كواكب التمثيل الباريسيات . ولقد لا  
لا غروان يكون طيرانه في الحال الى هناك : لأنه : « الى حيث يهوى  
القلب نهوى بك الرجل : »

غير انه تربث<sup>(٢)</sup> في اقتحام<sup>(٣)</sup> ذاك المسرح ، بقدر ما عاد الى الفرقة  
العليا التي استأجرها بذلك الفندق<sup>(٤)</sup> الفخم فاصلح من هندامه ،  
وارتدى بذلة السهرات من ابداع طراز افرنجي . ثم امتطى صهوة<sup>(٥)</sup>  
السيارة الصغيرة الجميلة التي ابتاعها بيومه لهذا الشأن نفسه . فقفزت<sup>(٦)</sup>  
به الى حيث يريد وقطع « تذكرة » باعلى واقرب المقاعد . وبدأت  
فرقة التمثيل المؤلفة من تلك الفتيات الخليلات في تمثيل فصل مغر

(١) المصرف : تموييل البنك . (٢) تمهل وتأنى . (٣) الاقتحام : الدخول .  
(٤) الفندق : الخان . (٥) الصهوة : المثب . (٦) اي وثبت به .

خليع . . . وتعلق فريد بأحدهما في تلك الليلة وانقضى الدور .  
وعاد صاحبنا الى مقره بسيارته الفخمة . نهب به الشوارع نهباً كما  
ينهب الغرام الآن نهباً !!

وصار ذلك ديدنه في كل مساء . سمع فيه باعلان يشعر باقامة  
تمثيل بأبهاء<sup>(١)</sup> ذلك المسرح المشهود .

وبطريق منه مباشر ادركت ابنة باريس الماكرة : « ماري بوفوع  
هذا الفتى الشرقي الغر<sup>(٢)</sup> الذي عليه سيبا<sup>(٣)</sup> الترف والثراء - في شرك  
هواها . فما عليها اذاً الا ان تتحقق : هل لديه ثروة متناسبة مع مظهره ؟  
فان يك كذلك فانها ستغريه ثم تستنزف<sup>(٤)</sup> ما معه من نقود : واذ  
ذاك تحفوه !!

وفريد كما زكنت<sup>(٥)</sup> فتى غر<sup>(٢)</sup> لم يجرب الامور ؛ وبالتالي فتى حظ<sup>(٦)</sup>  
ولهو وطرب لذلك سرعان ما اطلعها على مقدار ثروته ومنأها الاماني<sup>(٧)</sup>  
الطويلة العريضة . فالانت هي بدورها له القيادة مؤقتاً حتى ابتلعت  
ما معه من اصفر واينض . واذ ادركت انه قد خلا وفاضه نكرت  
له واستوحشت منه ، واخيراً نبذت به مكاناً قصياً !!

وها هو قد عاد طريداً بائساً ، وقد التظ فواده بانواع المموم

(١) جمع بهو ، والمقصود به : محل اقامة التمثيل . (٢) الغر : الذي لم يجرب  
الامور . (٣) السيبا : العلامة . (٤) تستنزف : تستخلص . (٥) زكنت : علمت .

واصناف الغيوم ؛ يتأوه تأوهات الحسرة والندامة كأنما قامت عليه

القيامة ١١

ولكنه وهو العارف ببساطة وحذب ابيه عليه عاد فجدد العزيمة  
ثانية ، وارهف من حد الرجاء المشلم ؛ وقال في نفسه متفائلاً : —  
لا كتبن الى ابي أستعطفه وأستجده من وفير خيراته ، وهو  
الكريم فلن يَضِنَّ <sup>(١)</sup> على بفلس ، والشفوق فلن ينهرني <sup>(٢)</sup> عن بابه :  
وبينما هو سابح في بحر هذه الفكرة الجديدة المنعشة ، يعد مواد  
رسالته الاسترحامية وينسق <sup>(٣)</sup> جملها الجذابة في ذهنه : اذ بموزع  
البريد الخارجي يسلمه رسالة عادية عارية للعنوان الخارجي  
من كل عبارات العطف والتكريم ، بعث بها اليه والده الشيخ سليم  
ففضها <sup>(٤)</sup> في تشاؤم وتلاها في قلق واضطراب . وما انتهى لآخر  
سطر من سطورها المؤثرة حتي التي بها الى الأرض ؛ وأجرى  
عليها وابلاً من الدموع الحارة الحزينة ...

لعلك تنساءلني ماذا في الرسالة ؟

فاليك نصها :-

(١) اي لن يهزل . (٢) اي لن يطردني . (٣) ينسق : اي يرنب .  
(٤) فضها : فتحها .

« الى فريد اليف المسارح وخذن<sup>(١)</sup> الممثلات يباريس :  
 السلام على من اتبع الهدى ، واجتنب طرق الردى : وبعد :  
 فقد اتصل بي حديثاً عموم سيرتك المشئومة ؛ وصار معلوماً لدي<sup>(٢)</sup>  
 انك قد طردت من قبل - من الجامعة لفعلة شنيعة ارتكبتها كوسيلة  
 لانطلاقك الى ميادين الاستهتار والفوضى والحلاعة ولقد خدعتني  
 بمظهر الكاذب سابقاً . فهل التخصص يكون عادة في المسارح ؟ !  
 هذا واني جد ساخط عليك . وليكن هذا آخر عهد يتناو السلام .  
 في ١١ جمادى الثانية « التوقيع : » سليم »

...

### ١٦ - النهاية المحزنة ١١١

لم يكن من الخطأ ان ينقطع رجاء فريد بعدئذ من صلات  
 والده ... لذلك فانه اضطر مكرها ان يستوطن تلك المدينة على  
 يؤس وانقطاع وسوء حال بالرغم من جمالها ، وتدفق أموالها ...  
 لأنه غري جاهل ومترف عاطل ...

فظل بها يبحث عن مهنة يقتات من دخلها أية كانت . واخيراً  
 صادفه الحظ المنكود بمهنة « مسع الاحذية » فتشبث بها ... على  
 انه خصص ما يفيض من واردها اليومي الضئيل بجانة<sup>(٣)</sup> مائلة على

(١) المحدث : الاليف . (٢) الحانة : موضع بيع الخمر .



بضعة امتار من « المسطبة » التي يعمل فوقها بياض ابامه .  
فكان ذأبه انه - اذا أَوَت « ابنة السماء » الى حمرها بالمغرب<sup>(١)</sup>  
لا يلتفت لامر ما ، بل ولا يهمه شأن ما من شئون الدين والدنيا ؛  
الآن ان يعدّو الى تلك الحانة في اشتياق ولوعة زائدة فيقدم الى  
« الخمار » كل ماتحوي محفظته من نقود . ويقول له بكال  
التواضع والاستعطاف :

- عفواً يامولاي : فهذا كل ما أملك الساعة من نقود !  
فَيَتَرَعُ<sup>(٢)</sup> له هذا كأساً بعد اخرى . وما يزال هو يشرب ويشرب  
حتى يُغْمَى عليه من شدة الثمل ، فيبيت بداخل عتبة الحانة وهو  
يعربد ويخور خوار العجول حتى يقرب الاسفار ...

\*\*\*

فكانت ليلة ذات نحس ، جرى فيها بينه وبين بعض زوّار ذلك  
الحان نفسه من اشقياء الاوربيين - شجار عنيف بسبب من تلکم  
الاسباب الشيطانية انتهى باخراج ذلك المغربي السكران « مسدّسه »  
وتصويبه الى دماغ « فريد » - فائلاً له في تدمر وحنق :-  
- خذ هذا جزاء وفاحتك واستهتارك علينا وعلى أعراضنا في  
عقر ديارنا ايها الشرقي الغرّ الحبيث !

(١) كناية عن مغيب الشمس . (٢) اي يملأ .